

تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية



ميخائيل
نعيمة

لِقاء



مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d



نوفل



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ـة
نوفل



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

صدرت عام2013 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة السادسة عشرة، 2016

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**
رسوم: **رضوان الشهّال**

ر.د.م.ك. (الطبعة الورقية): 978-9953-26-912-2
ر.د.م.ك. (الطبعة الإلكترونية): 978-614-438-445-9

الوَديعَةُ

كان الهزيعُ الثالثُ من الليل. وكنتُ غارقًا في حلم مزعج عندما أيقظتْني طرْقةٌ عنيفة على الباب خِلتها للوهلة الأولى بعضًا من ذلك الحلم. فأجفلتُ. ثمّ ما لبثتُ أن سمعتُ صَوْتًا لاهفًا يناديني: «افتحْ افتحْ. هذا أنا».

صوتٌ ما عرَفتْه أُذني. ولا استيقظتْ له أقلّ ذكرى في دمي. ولكنَّ لهفةً ملحاحةً جرتْ إليّ في موَيجاته جعلتْني أنهض في الحال من سريري، وأنير مصباحي، وأسرع إلى الباب فأفتحه قبيل أن أجمعَ أفكاري وأسأل نفسي عن الطارق مَن عساه يكون، وما حاجتُه إليّ في مثل تلك الساعة من الليل.

وما كاد نورُ المصباح يقعُ على الزائرِ حتّى سمعتني أهتفُ بصوتٍ يتكلّف اللطف محاولًا أن يخفي ما فيه من دهشة:

«آ. ليوناردو؟».

«هكذا أُدعَى. أتسمحُ لي بالدّخول؟»

«من غير شكّ. تفضّل. تفضّل.»

ومشينا إلى ردهةٍ جلسنا فيها على كرسيّين متقابلين. وكان زائري يتأبّط كمنجة في بيتٍ تلبّس بجلدٍ ذهبيّ اللون، ثمين. وإذ جلس وضَعَ الكمنجة على ركبتيه، ثمّ تناول لفافة من التبغ وأشعلها وراح يمجّ الدخانَ من أنفهِ ومن فمه مجًّا متواصلًا، فلا يتوقّفُ حتّى لنفضِ الرماد. وكانت أصابع يده الثانية تتنقّل أبدًا في حركاتٍ سريعة من طرف الكمنجة إلى طرفها، كأنّه كان يستوثقُ من سلامتها أو كأنّه يخشى أن ينبت لها بغتة جناحان فتطير من بين يديه.

لم أشأ أن أكونَ البادىء بالحديث. ولكنّ زائري أتلف لفافتين وأشعل الثالثة من غير أن ينطق بكلمة، ومن غير أن يرفع نظره عن الأرض إليّ. وأخيرًا قلتُ وقد بدأ صمتُه الطويل يزعجني:

«أما أدهشكَ أنّني عرفتك في الحال وما رأيتكَ غير مرّة في حياتي، وذاك منذ عام أو أكثر من عام؟»

«بل كان يدهشني لو أنّك لم تعرفْني.»

«غريب. أواثِقٌ أنتَ مِنْ أنّ مَن رآك ولو مرّة لا ينساك؟»

«بل أنا واثق من أنّ مَن سمعني مرّة، كما سمعتني أنت، لا ينساني.»

«ولكنّني ما سمعتُ صَوتك قبل الآن».

فأطرق الرجلُ هنيهةً ثمّ قال مستغربًا:

«إذن كيفَ تقول إنّك عرفتني؟».

«إنّ ملامحك ما تزال منطبعة في ذاكرتي. هذ الشعرُ الفحيم، الأجعد، اللامع، المسترسل على أُذنيك، وهذان الحاجبان الكثيفان المنبسطان فوق عينيك، وهاته الأهداب الطويلة التي تظلّل محجرَين واسعَين تدور فيهما حدقتان سوداوان ذاهلتان، وهاتان الشفتان الرّقيقتان المشدودة أطرافهما بأثقال كآبة تأبَى السفور، وهذا الأنف الدقيق الأقنى، والجبين العالي الأبيّ. أجل، هذا الوجه الحنطيّ، الشاحب، المستطيل، الغنيّ بمعانيه، ما نسيته ولن أنساه البتّة. وأصابعك الممشوقة، المرهفة، وقد كانت حركاتها الرشيقة تسيل سحرًا على الأوتار. كيف لمنْ رآها مرّة أن ينساها؟»

«أهذا كلّ ما انطبع في ذاكرتك منّي؟»

«لا. ما نسيت كمنجتك. فكأنّها في تلك الليلة التي رأيتك فيها كانت قطعة منك. أمّا صوتها العذب فما برح في أُذني.»

«وتقول إنّك ما سمعتَ صَوتي من قبل؟»

«أقول إنّي لم أسمع صوتك – صوتك أنت. وقد سمعتُ صوتَ كمنجتك.»

«وهل صوت كمنجتي غير صوتي؟»

قال ذلك بصوت من يخاطب نفسه. ثمّ ضمّ الكمنجة إلى صدره، وانحنى فوقها انحناءة أحسستُ فيها تأنيبًا لطيفًا، صامتًا موجّهًا إليّ يرافقه حنان لا يوصف نحو الكمنجة ذاتها.

وكان سكوت طويل، ثقيل، – سكوت شعرتُ معه كأنني أسأتُ إلى زائري فخيّبتُ أملًا من آماله بي. أو كأنّني جنيتُ عليه وعلى كمنجته إذ كلمته عنها كما لو كانت آلة موسيقيّة لا غير. ورغبة مني في محو الإساءة، وتنقية الجو، لأسهل عليه الوصول إلى الغاية التي من أجلها جاء، رحتُ أذكره بتلك لليل التي رأيتهُ فيها لأوّل مرّة. فقد كانت، في الواقع، غنيّة بالذكريات، نادرة بين الليالي. قلت:

«أتذكر حفلة افتتاح فندق المنارة؟».

«كيف لا، وقد كانت فاتحة حياتي وخاتمتها.»

«أكلّمك كلامًا بسيطًا وتكلّمني بالألغاز. لا بأس. فأنتَ من رجال الفنّ. وصديقي سليم الكرّام لم يبالغْ في وَصْفك قطّ يوم جاء يغريني بك لقبول دعوته إلى الحفلة. فقد كان يعرف شديد كرهي للحفلات بأنواعها، لا سيّما التي يكثر فيها الهرج والمرج والثرثرة، والفرح المقترض من الكأس وقرص الحلوى.»

«وكيف أغراك بي؟»

«قال: ستسمع كمنجة ما سمعتَ مثلها في حياتك.»

«ولم يقل: ستسمع لاعبًا على الكمنجة؟»

«بل قال: ستسمع كمنجة.»

«ما كنتُ أظنّه دقيق الذوق إلى هذا الحدّ.»

«تعني أنّه جعلك والكمنجة كيانًا واحدًا؟ بلى. سليم ذو حسّ مرهف وذوق رفيع. وقد بقي يحدّثني عنكَ نحوَ الساعة حديثَ مَن وقع على كنز ثمين عندما حظي بك ليضمّك إلى جوقة الفندق الدائمة. ولمّا سألته عن جنسك وعن بلادك أجابني أنّه لا يعرف عنك أكثر ممّا شئتَ أن تبوحَ به. وذلك أنّك من أبٍ لبناني وأُمّ إيطالية. وأنك درستَ الكمنجة في إيطاليا ثمّ عدتَ إلى بلادك لترتزقَ من موهبتك بُعَيد أن مات والداك ولم يتركا لك من حطام الدنيا غير كمنجتك. وأنّكَ تأبَى أن تتكنّى بكنية والدك أو والدتك وأن تُعرَفَ إلّا باسمك «ليوناردو» لا غير.»

«ذاك ما أقوله للناس دفعًا لفضولهم.»

«أتعني أنّ الحقيقة غير ما...»

«دعنا من ذلك الآن. وأخبرني: ماذا قالت لك كمنجتي في تلك الليلة؟» وشدّ الكمنجة إلى صدره بلهفة وحنوّ.

«لقد خاطبتني ببيان ما سمعتُ في حياتي بيانًا يدانيه عذوبة ورقّة ومعنى لا من فم ولا من قلمٍ ولا من وتر. وبالأخصّ في ذلك اللحن الذي دعوتَه «لقاء» فكان أكثر من لقاء. كان في البداية حرقة صاهرة فتحوّل في النهاية نشوة ربّانية. كان حنينًا غامضًا كالضباب، تائهًا كالدخان، فصار طمأنينة فيها صفاء النور واستقرار الأبد. وكنتَ كأنّك الكمنجة وكانت الكمنجة كأنّها أنت. ومعًا كنتما ذلك اللحن العجيب الذي لن أنسى تأثيره ما حييت. وما أظنّ غيري من الذين سمعوه ينسونه. لا سيّما ابنة صاحب الفندق، الآنسة بهاء. كنتُ جالسًا بجانبها، وكنتُ أحسّ اهتزازاتٍ غريبةً تجري إليّ من جسمها المفعم بعافية شبابها الغضّ وجمالها الفائق الوصف. فقد كانت همسات كمنجتك وصيحاتها تفعل فيها فعل الكهرباء. فما دهشتُ عندما أُغمي عليها في آخر اللحن. بل كأنّي كنتُ أتوقّع ذلك. ثمّ كان ما كان من بلبلة وذعر انتهيا، والحمد لله، بسلام. إي، لقد كانت ليلة فريدة في الليالي».

وقفتُ عن الكلام لأفسح المجال لجليسي علّه يبوح لي بسرّه. إلّا أنّه ما ازداد إلا اعتصامًا بالصمت. وقد لاحظتُ تغيرًا كبيرًا في وجهه وحركاته. فامتقع لونه، وتقطّب حاجباه، وأخذتْ شفتاه ترتجفان، وغامتْ عيناه المحملقتان بالمصباح، وارتخت يداه فعادتِ الكمنجة من صدره إلى ركبتيه، وجمدت أصابعه فما تتلمّسُ الكمنجة بلهفة من طرف إلى طرف.

بقيتُ دقائق عدّة أُفتّشُ عن حديث أغريه به على الكلام فلم أجد أفضَل من حديث الفندق وصاحبه وزوجه وابنته.

فهو يعزف في الفندق منذ أكثر من عام ويعرف أصحابه ويعرف ما بيني وبينهم من صداقة. إذًا فالموضوع قريبٌ منه ومنّي وعزيز عليه وعليّ. لذلك عدتُ بعد تردّد فقلت:

«السيّد سليم من خيرة رجالنا على الإطلاق. رجل فهيم وشهم كريم. وزوجه كذلك من خيرة نسائنا، وإن تكن أقلّ منه فهمًا وكرمًا. أمّا ابنتهما بهاء، صانها الله، فما إخال من السهل وجود صنوة لها لا في هذه البلاد ولا في سواها. فهي حقًّا آية من آيات السماء على الأرض. ولا غرو أن يتعلّق بها والداها إلى حدّ العبادة. ألا توافقني في ذلك؟ أمس كان عيد مولدها التاسع عشر. ولا شكّ أنّه كان عيدًا بهيًّا».

سكوت.

«زياراتي لهم نادرة لأنّ حياتي بعيدة عن حياتهم. وها أنا لم أرَ أحدًا منهم منذ ليلة الافتتاح. فكيف هم؟ عساهم في صحّة وخير؟»

سكوت.

«بلغني أنّ بهاء قد خُطبت لشابّ من أُسرة كريمة في المدينة. وإنّي لأرجو أن يكون جديرًا بها. فهل عرفتَه، وما رأيك فيه؟»

سكوت.

عندئذٍ فرغت حيلتي فقرّرت بدوري أن ألوذ بالصمت فلا أتكلّم حتّى يتكلّم. ولقد نجع الصمتُ حيث لم ينجعِ الكلام. فما هي إلّا دقائق معدودة حتّى نهض زائري عن كرسيه حاملًا الكمنجة بيديه الاثنتين وقال بنبرة عصبيّة:

«جئتُ أستودعك روحي».

«ماذا تقول؟»

«روحي. روحي. أريد أن أأتمنكَ عليها.»

«ومَن أنا لأؤتمَنَ على الأرواح؟»

«أنتَ أنت. وأنا أعرف مَن أنت. وكمنجتي لن تكون في أمان إلّا في كنفك وبين يديك.»

«آ. تريد أن تتركَ كمنجتك وديعة عندي. ولكنّها مسؤولية عظيمة تحمّلني إياها يا صاحبي.»

«هي أكبر من أن يحملها سواك، وأصغر من أن تحملها أأنت. وكلّ ما أرجوه إليك ألا تدَعَ عينًا غير عينك تقع عليها، ولا يدًا غير يدك تمسّها. وأن تحفظها في مكان لا تتسرّب إليه الرطوبة. وفيما عدا ذلك فأنتَ في حلّ من كل مسؤولية تجاهي.»

«ألعلّك على سفر.»

«أجل، على سفر.»

«وإلى أين؟»

سكوت.

«عفوًا، فقد يكون سؤالي تدخّلًا في ما لا يعنيني إلا أنّه يعنيني أن أعرف متى تعود.»

«قد أعود في أسبوع. وقد لا أعود في سنة. أمّا إذا انقضى الحَولان ولم أرجع فأرجوك أن تحرق الكمنجة في بيتها وأن تجمع رمادها وتدفنه بين جذور صنوبرة، على أن تكون صنوبرة مسنّة ومنفردة.»

«إنها لوصيّة غريبة. وأنت شديد التكتّم، فما أجرؤ أن أسألك عن معناها.»

«لا تسلْني فوق ما في استطاعتي أن أُعطيك. فإمّا يأتي يوم تفهم فيه كلّ شيء. وإمّا يبقى كلّ شيء مغلقًا عليكَ إلى الأبد.»

«لا بأس. فما هو أوّل لغز يُغلق عليّ فهمه. ولكن...»

«ولكن لقد صاح الديك واكفهرّ الليل. وعليّ أن أنطلق قبل أن يدركني الفجر. إليك وديعتي. فاحرسها ولا تذكرْني بسوء.»

وبسط إليّ ذراعيه المرتعشتين، والكمنجة عليهما، ثمّ انحنى فوقها وقبّلها قبلة طويلة. وكأنّي لمحتُ بريق دمعتين في عينيه. فتناولتُ الكمنجة منه برفق أقرب ما يكون إلى الخشوع وقلتُ وفي صوتي غصّة:

«ليطمئنّ بالك. فستكون عندي بمثابة حدقة عيني. وإنّي لأرجو أن تعود إليها قريبًا فتُسمعني بعض نفثاتها، وألّا أُفجع بحرقها، لا سمح الله».

ومشى زائري بخطوات متثاقلة نحو الباب. ومشيت خلفه. وما إن مدّ يده إلى الباب وهمّ بفتحه حتّى التفتَ إليّ وقال بصوت متلجلج:

«لي وصيّة أخيرة، ولعلّها أصعب ما أوصيتك به. ذاك... ذاك أن تكتم أمر مجيئي إليكَ هذه الليلة عن كلّ مخلوق في العالم، وألّا تبوحَ بحرف أو بحركة ممّا دار بيننا. أتعاهدني... أتعاهدني على ذلك؟».

«وإذا سئلتُ، أتريدني أن أقول لا حيث يجب أن أقول نعم؟ أتريد أن أكذب؟»

«رُبّ صدقٍ كان أكذب من كذب. وكذب كان أصدق من صدق. وأنا صادق يا صاحبي ولا غشّ فيّ. فكيف أستطيع أن أُعلِّمك الغشّ والكذب؟ إنّما أطلب إليك أن تكتم عن الناس ما ليس من شأن الناس، وما لو عرفوه لأساؤوا فهمه. عاهدني. عاهدني».

قلت، وقد سدّت عليّ حرارة الرجل ولهفته مسالك الجدل والحذر:

«ليكن ما تشاء. ولك عهدي على ذلك.»

«أنا ذاهب.» – وفتح الباب وخرج. فقلت:

«رافقتك السلامة. وإلى اللقاء.»

فتوقّف هنيهة وسمعته يتمتم: «لقاء. لقاء». ثمّ التفت إليّ وقال بصوت عالٍ:

«قل إن شاء الله». فأجبته متمهّلًا باللفظ كَمن يقطعُ الكلمات إلى مقاطع:

«إن – شاء – الله!» ولبثتُ واقفًا بالباب أسمع وطءَ قدميه وأرقب شبحه المتباعد عنّي على ضوء مصباحي الضئيل، إلى أن ابتلعته غبرة الليل الراحل فما بقيت أسمعه ولا أراه.

الكمنجَةُ الجانيَةُ

مرّت ثلاثةُ أيام تمكنّتُ في خلالها من أن أصرف فكري عن ليوناردو وزيارته الغريبة المليئة بالأسرار. وعجبت لي كيفَ أنّني استسلمتُ لإرادته بمثل تلك السهولة، فقبلتُ وديعته وصدقتُ كلّ ما قاله فيها. وما أدراني أنّ في بيت الكمنجة كمنجة حقّة لا قنبلة أو أفعوانًا أو فرخ شيطان؟ ثمّ ما أبسطني بل ما أجهلني، أُعاهده ألّا أبوح لإنسان بزيارته وبما كان بينه وبيني. فقد يكون في الأمر ما لا يجمل بي السكوت عنه وما لا تُحمد عقباه. وقد يوقعني السكوتُ في ورطة كريهة. ولكنّ الصّدقَ كان يفوح عليّ من كلّ نبرة في صوْت الرجل، وكلّ حركة من حركاته، وكان يشيع في وجهه وثيابه. فلم أشتمَّ منه أقلّ رائحة للمكر والنفاق. أفَمِن الممكن أن تخونَني فراستي، وأن يخدَعني قلبي إلى ذلك الحد؟ لا. لا. فالرجل لا غُبار على صدقه البتّة. ولكن لماذا ألحّ أن أُعاهده، ولماذا عاهدته على السكوت؟ لقد كان عليّ أن أرفض، ولقد كان التسليمُ ضعفًا لا مبرّر له. وما نفع تأنيب النفس بعد فواتِ الوقت؟ لقد قطعتُ عهدًا، ولا سبيلَ إلى نقضه الآن. فلا مناصّ من التمسّك به. ومن ثمّ فأيّ ثأر للرجل عندي حتّى ينتقيني من بين كلّ الناس ويدفع بي إلى المكاره؟ أليس جليًّا أنّه اختارني لعظيم ثقته بي؟ فمن الإثم إذًا أن أقابلَ ثقتَه بسوء الظنّ والشكّ.

وأنا كذلك إذا بسيارة فخمة تقف بالقرب من بيتي فيترجّل منها كهل ممشوق القامة، عامر البنية، عرفتُ فيه للحال صديقي الكرّام. ولا أدري لماذا انقبض قلبي وغشي فكري شيء من الضباب. فقد شعرتُ أنّ وراء زيارته الفجائيّة خبرًا مشؤومًا. إلّا أنّني تكلّفتُ السرور والابتسام وخرجت لاستقباله هاتفًا:

«أهلًا، أهلًا وسهلًا بالصديق سليم!».

فأجابني لاهثًا وما يزال على بضع خطوات منّي وقد تهدّل شارباه وتبعثر الشعرُ على رأسه الحاسر، وبدا الإهمال في ثيابه وزينته ووجهه، وهو الرجل المشهود له بالإناقة وحسن القيافة:

«الصّديق لوقت الضّيق. أمّا أنت – عافاك الله – فلا للفرج ولا للضيق». قال ذلك ودخل البيت توًّا من غير أن يصافحني. ثمّ جلس وراح يمسح وجهه بمنديل من الحرير كمَن أعياه التعب أو بلّله العرق، في حين أنّه لم يمشِ سوى خطوات معدودة ولم يكن للعرق أو للغبار أقلّ أثر على جبينه.

جلستُ بالقربِ منه، ووضعت يدي على كتفه مربّتًا، ثمّ قلتُ وأنا ما أزال أُحارب شعوري القاتم بعكسه:

«أهلًا، أهلًا بسليم. ما أحلاها زيارة وقد مرّ بي أكثر من عام ولم أرَك. إنّي لأعرف لماذا جئتَ. لقد جئتَ تدعوني إلى حفلة زفاف بهاء. أليس كذلك؟».

فانتفض صديقي انتفاضة كلّها ألم وغضب واربدّ وجهه، وأخذ بيدي فشدّ عليها حتّى كدت أصرخ من الوجع، ثمّ حملق بي طويلًا وقال وكأنّه يعربد:

«أما كفاكَ أن تهجرني في محنتي حتّى جئت تنكأ جرحي فوق ذلك؟ لا. ما جئتُ أدعوك إلى زفاف بهاء بل إلى مأتمها». وأجهش بالبكاء كأنّه الطفل في أوّل فطامه. فانعقل لساني، وجفّ حلقي، وغام بصري، فلا الكلام ينقاد لي، ولا أنا أدري ماذا أفعل أو ماذا أقول.

إنّها في الواقع لمصيبة خرساء عمياء أن يفقد هذا الرجل وزوجه وحيدتهما في حين كادا يقطفان السعادة صافية، سائغة، كاملة. فقد حباهما الحظّ من البحبوحة، وحسن السمعة، وجودة الأخلاق، والهناءة الزوجيّة ما جعلهما موضوعًا للحسد والإعجاب معًا. ثمّ باركَتِ الأقدارُ بحبوحتهما بابنتهما بهاء. وهما شغوفان بها إلى درجة الجنون. ولا عجب. فقد جمعتْ هذه الفتاة إلى سذاجة الطفل نقاوة الملاك وصفاء النبيّ فما هي باللعوب الطروب رغم سنيها التسع عشرة، ولا هي بالمترصّنة المتجهّمة رغم رزانتها الفطرية وحكمتها البديهيّة. تبسم ولا تضحك، وتتكلّم من غير أن ترفع صوتها، فكأنّها تهمس همسًا. ولكنّه همس تترقرق فيه أعذب الألحان، وتتمازج ألطف الألوان. لا ترقص، ولكنّ في مشيتها أنبل ما في الرقص من تموّجات الحياة.

كنتُ شديد الإعجاب ببهاء، وكانت تستأنس بي فلا تخاطبني إلّا بقولها: «يا صديقي الأعزّ». وكان لا يطيب لها أن تحدّثني إلّا في الشعر والموسيقى والأمور التي ندعوها «ما وراء الطبيعة». حتّى إنّني لشدّة نهمها في هذه الموضوعات، كنتُ أخشى على روحها النقيّ الفتيّ أن يصابَ بشيء من «الاحتقان» أو «عسر الهضم»، إلّا أنّها كانت تبدّد كلّ مخاوفي من هذا القبيل بما تبديه من مقدرة عجيبة، لا عناء فيها ولا إجهاد، على الغوص إلى الأعوار السحيقة والسموّ إلى بواسق الفكر والخيال.

كنتُ أُحاول أن أجلو في ذاكرتي وجه بهاء بمعانيه الدقيقة، الناعمة، المتناهية تناسقًا وانسجامًا، ثمّ أن أصوّرها لنفسي جثّةً هامدة، فما يطاوعني فكري ولا تنساق الصورة الكاملة لخيالي. وينكمشُ قلبي لا أسفًا عليها فقط، بل حزنًا على والدها الجالس بجانبي وعلى والدتها المفجوعة في المدينة.

وأفتّش عن كلمة أقولها فما أجدها. حتّى إنّ جوّ الغرفة راح يضغط على صدري كما لو كان صفائح من رصاص. وأخيرًا زفر صديقي زفرة حرّاقة وقال بصوت يقارب الهمس:

«قم بنا».

«إلى أين؟»

«إلى المدينة. إلى البيت. نُكبنا ببهاء وأخشى أن نُنكب بأُمّها كذلك. لنمشِ.»

«ولكن... ولكن أخبرني. أخبرني بما كان ومتى وكيف كان.»

«عجيبًا كيف لم يبلغك من الأمر شيء وهو حديث المدينة – بل حديث البلاد – منذ أيّام.»

«أما تعرف في أيّة عزلة أعيش؟ فلا عجب أن لا أسمع بما جرى.»

«لا تُضِعِ الوقتَ سُدى. سأخبرك بكلّ شيء في الطريق. أوصدْ بابك وهيّا معي. لعلّنا نستطيع أن نخلّص حياة أُمّ بهاء.»

إنصَعتُ لمشيئة صاحبي الذي ما إن دخلنا السيارة حتّى أمر السائق بأن يسرع على قدْر ما في محرّك السيارة من سرعة. وكان الفصل ربيعًا، والنهار لم يبلغ أشدّه. وكانت المسافة التي تفصلنا عن المدينة نحو سبعين ميلًا، والطريق كثير اللفّ والدوران، آنًا في بطن وادٍ، وآونة على رأس أكمة. والأرض مزهوّة بالخضرة البكر، والجوّ سكران بالأريج، والعصافير مجنونة بالحبّ والغناء والسعادة الزوجية، فما يتعب لها جناح ولا تبحّ حنجرة. وصديقي لا يسمع غير فحيح الداهية التي دهمته، ولا يحسّ غير أنيابها تغور أبعد فأبعد في قلب سعادته البيتيّة لتتركها عمّا قليل شلوًا من أشلاء السعادات البشريّة المكدّسة على مفارق الطرق في طول الأرض وعرضها.

أمّا أنا فكنتُ أُحاول أن أصرف أبصاري عن بهجة الأرض والسماء فلا تنصرف، وأن ألفّ أفكاري بظلمة الموت التي كانت تتخبّط فيها أفكار جاري فتأبَى أن تلتفَّ بغير النور. ورحتُ أساجل نفسي بنفسي فأعجبُ للغشاوات التي تسدلها كلمة أو حركة أو حادث على أبصار الناس فتبدّل ضياءها ظلامًا وظلامها ضياء. وأعجب للناس كيف يعجزون عن تمزيق تلك الغشاوات؛ بل على العكس من ذلك يفتنّون في صقلها ولا ينفكّون يدعمون نسيجها الواهي بنسيج من قلوبهم حتّى تصْبحَ سدًّا أصمَّ منيعًا بينهم وبين العالم الأوسع.

ها هو صديقي يتنفّس مثلي هواء الربيع المنعش فلا يتنفّس فيه غير صقيع الموت؛ ويبصر مثلي دفائن الأرض تموج نضرة، وغبطة، وحياة على أديم الأرض فلا يبصر فيها غير حياة دفينة لا يأمل لها بالقيامة. وأمس، منذ ثلاثة أيّام لا غير، كان لا يتنفّس غير جذل الحياة، ولا يبصرُ غير بهجة الربيع حتّى في صميم الشتاء. كلّ ذلك لأنّ غشاوةً قد أُسدلتْ على بصره إذ أُسدل الستار على حياة ابنته. ألعلّه واثق من أنّ ما خلف الستار ليس جميلًا كالذي أمامه؟ ها هو ستار الشتاء – ستار

الجمود، والغيبوبة، والموت – قد ارتفع عن مهرجان من الحركة، والوعي، والحياة. فما أدراه أنّ بهاء وراء ستار الموت ليست أسطع سناء منها أمام ستار الحياة؟

وكأنّ صديقي كان يسمع دبيب تأمّلاتي، فتنحنح بغتة ومسح بمنديله عينيه المبلّلتين وقال:

«يا ويح من ربيعهم شتاء. آ. بهاء. بهاء! لقد بدّلتِ ربيعنا شتاء. أتعرف أنّ محبّتها لك كانت تفوق محبّتها لي ولوالدتها؟».

«بل كانت من منبع آخر لا غير. ولكن، أمَا آن أنْ تخبرني بما كان؟»

«بلى. بلى. كان ذلك في عيد مولدها، نهار الاثنين الماضي، وقد رأينا أن نجعله عيدًا مزدوجًا فنفاجىء المدعوّين وكلّهم من علية القوم، بعقد خطبتها على شابّ من خيرة شبّان المدينة هو فؤاد بن جاهد الفهداوي. ولم نخبرك بالأمرِ ظنًّا منّا أنّكَ لن تتخلّف عن الموعد. لكنّك اكتفيتَ ببرقيّة. ويا ليتكَ تعرف وقع برقيّتك على بهاء ما كان أجمله. فقد كانت عندها أنفس هديّة جاءتها في ذلك النهار.

«أقمنا الحفلة في الفندق. وكانت بالحقيقة حفلة نادرة المثال لم تشُبها أقلّ شائبة. إلى أن انتهتْ مراسم الخطبة. فطلبت بهاء إلى ليوناردو – لعنة الله عليه – أن يعزف على كمنجته الأثيمة ذلك اللحن الذي عزفه في حفلة افتتاح الفندق. وأذكر أنك كنتَ أشدّ الحاضرين إعجابًا به – أنت وبهاء – ألا تذكره؟»

«كيف لا؟ لقاء. لقاء.»

«هذا هو. نعم، نعم. هذ هو. ويا ليته ما كان. جلستْ بهاء على ديوان تجاه منصّة الجوقة الموسيقية، وجلس الخطيب عن يمينها وأنا على يسارها، مطوّقًا عنقها بذراعي، وجلستْ أمّها بجانب الخطيب. والمدعوّون بين جلوس ووقوف وقد اتّجه الكلّ إلى ليوناردو.

«ما إن مرّ ليوناردو بقوسه على الأوتار حتّى خفتَ كلّ صوت وماتت كلّ حركة. فلا نحنحة، ولا وشوشة، ولا عطسة، ولا سعلة. ومضى في عزفه والناس كأنّهم في حضرة ساحر عظيم، يميلون إذا مال، ويجمدون إذا جمد، ويعبسون إذا عبس، ويطبقون أجفانهم ويفتحونها كلّما أطبق أجفانه وفتحها. وبلغ من لحنه فترة راحت فيها الكمنجة تعاتب، وتشكو، وتستغيث، وتنوح. وإذا بزفرات مخنوقة تتصاعد هنا وهناك من الصدور. ومع الزفرات نشيج متقطع. وإذا بعينيّ – حتّى عينيّ – تغرورقان، أنا الذي ما ترطّب لي جفن إلّا لحزن ساحق عميق.

«وما طال أن انقلب عويل الكمنجة هزءًا وشماتة، ثمّ تحدّيًا ووعيدًا، ثمّ صولة وجبروتًا، ثمّ صراعًا عنيفًا، ثمّ نصرًا باهرًا، ثمّ أغرودة علويّة، ثمّ صلاة ممعنة صعودًا في سلالم الفضاء. وإذا بي، وعيناي عالقتان بليوناردو وكمنجته وأصابعه، أحسّ عنق بهاء يلتوي كعنق زهرة تذوي، ثمّ أحسّ رأسها يهبط إلى صدري وينزلق عنه إلى حضني؛ ثمّ أحسّ جسدها بكامله يهوي عليّ، على

حدّ ما كان يجري لها في أيّام طفولتها حين يغلبها النعاس. فأجمعها في حضني وأسند رأسها إلى ذراعي مثلما كنتُ أفعل وهي طفلة.

«وتسكت الكمنجة فتتحوّل القاعة بمن فيها إلى ما يشبه بيتًا للمجانين: جلبة ولغط ووشوشة وزحف أقدام وكراسٍ، وقعقعة آنية، وهتافات: بهاء! بهاء! أين الطبيب!

«ظننتها إغماءة وتمضي في دقائق كالتي أصابتها ليلة الافتتاح. ولكنّها في يومها الرابع والحال هي هي. لا أكل، ولا شرب، ولا كلام، ولا حركة. أجفان مطبقة، وأنباض ما أعلم أيّها يكون الأخير.»

«أتعني أنّها لا تزال قيد الحياة؟»

«فيها بقيّة حياة.»

«أنت كافر يا سليم. كيف توهمني أنّها ماتت وما تزال فيها حياة؟»

«قلت لك بقية حياة. ولكن لا رجاء فيها فكأنّها ميتة.»

«حيث الحياة هناك الرجاء. ومن الكفر الذي ما بعده كفر أن تقيم نفسك وصيًّا على ربّ الحياة والموت فتجعله يختم حياة ما أَذِن بعدُ بختمها. ثمّ إنّك تجهل كلّ الجهل قصده منها.»

«عزِّني بغير هذا الكلام يا صاحبي. فالقلب يأبى أن يرى للأمل أقلَّ بصيص.»

«لا بأس. وما رأي الأطبّاء؟»

«الأطبّاء. ومتى اتّفقوا على أيّ ضعف في القلب. دود في الأمعاء. هستيريا. حالة نفسية. مرض النوم. ولكنّهم يكادون يتّفقون على أنّ الأمل بالحياة ضئيل جدًّا.»

وعضّ صاحبي على سبّابته اليمنى، وأغمض عينيه، وهزّ رأسه وسكت. فسكتّ احترامًا للوعته. وبقينا كذلك حتّى دخلنا المدينة وشوارعها المحمومة بالحركة التي لا تهدأ. فقال:

«يا لها مقبرة سكانّها في رقصة دائمة!»، ثمّ بغتة:

«ماذا تعرف عن السحر؟».

«سؤال غريب.»

«لا تستغربه. فقد جاءني مَن أثبتَ لي أنّ بهاء مسحورة.»

«ومَن الذي سحرها؟»

«ذاك اللعين ليوناردو.»

«ليوناردو؟ إن أكن أنا ساحرًا فليوناردو ساحر. بل الأصحّ أنّ ذلك المسكين مسحور لا ساحر.»

«لا تدافعْ عنه. فقد أصْبحت على يقين من أنّه خبيث وأيّ خبيث.»

دعكَ من هذه الترّهات يا سليم. وقل لي – بيني وبينك: هل تحبّ بهاء خطيبها، أم أنّها قبِلت به إرضاءً لخاطرك وخاطر أُمها لا غير؟»

«لكأنّك تجهل بهاء. ما أظنّها تعرف ما هو الحبّ. وعندما حدّثناها في الزواج تقبّلتِ الحديث كما لو كان عن الطقس أو عن أمر عاديّ لا بدّ منه للبنات، وهي في جملتهنّ. فما أظهرت غير الرضى. وخطيبها فؤاد الفهداوي شابّ ممتاز. ستراه بعد قليل، وهو لا شكّ سيملأ عينك.»

«ألا تقدّر أنّ بهاء التي ما عرفت الحبّ بعد قد عرفَتْه ليلة خطبتها؟»

«ماذا تعني؟»

«أعني... أليس ممكنًا أن تكون بهاء قد شعرت في تلك الليلة بجاذب إلى ليوناردو، وشقّ عليها أن تكون قد ارتبطت بسواه، فكان ما كان من جرّاء عنف الصدمة؟»

«لا، لا. ما أظنّ شيئًا من ذلك. فقد مضى على وجود ليوناردو في خدمتنا أكثر من عام. فما عرفت، ولا عرف غيري، أنّها خاطبته يومًا بكلمة. على أنّها كانت تطرب كلّ الطرب لكمنجته. والذي أظنّه، بل أعتقده، هو أنّ ذلك الشيطان علق بحبّها، ولعلمه أن لا أمل له بالوصول إليها، سحرها بكمنجته ليحول دون ارتباطها بسواه، وإلّا لَما هرب على الأثر. لكنّني واجده لا محالة. فقد تعاقدتُ مع رجال من الشرطة السرّية للبحث عنه وإلقاء القبض عليه. ثمّ إنّني عملتُ بمشورة محاميّ فاستصدرتُ من المحكمة مذكّرة توقيف بحقّه مدّعيًا أنّه سرق منّي كمّية من النقود. إذ لا يصحّ اتّهامه بالسحر ولا بيّنات لديّ ترضي المحكمة.»

«أمّا السرقة فلديك عليها البيّنات؟! يا للعار أن يطيح الحزن بعقل سليم الكرّام إلى حدّ أن ينسيه شرفه وكرامته ورجولته، فيتّهم إنسانًا بريئًا تهمةَ زور ويكتري لإثباتها شهداء زور.»

«كلّ الوسائل شريف للاقتصاص ممّن لا شرف لهم ولا وجدان. وهذا الوغد ليوناردو منهم. أمهلني بضعة أيّام فأبيّن لك أنّي على صواب. إنّه لساحر خسيس لا غير. ولا بدّ من أن أقبض عليه ولو في آخر المعمورة، حتّى وإن كلّفني الأمر كلّ ما أملك. أمهلني. أمهلني.»

وبلغنا البيت فانقطعنا عن الحديث.



آراء

دارُ الكرّام دارٌ فخمة البناء والرياش والموقع. تطلّ على البحر والجبل، وتتسنَّم ربوة زاهية بشتّى الأشجار والأعشاب والأزهار. وقد استقلّت بتلك الربوة، واستقلّت الربوة بها. فكأنّها في المدينة وليست منها.

سألتُ صاحبي أن يدخل بي توًّا غرفة بهاء من غير أن نمرّ بردهة الاستقبال. إذ كنتُ أخشى أن أصطدم هناك بجمهور من الزائرين وقد جاء بعضهم يؤاسي، وبعضهم يستفسر، وبعضهم يُشبع نهم القيل والقال، والآخر يشارك بلسانه في البليّة في حين قلبه يتلمّظ بالشماتة. أجار الله كلّ ذي بلوى من مؤاسيه.

وكان أنّ الذي هربت منه في ردهة الاستقبال وقعت في مثله – وقد يكون أشنع منه – في غرفة بهاء. إلّا أنّني، والوالد بجانبي، مشيتُ إلى سرير المريضة من غير أن ألتفت يمنة أو يسرة. وقد شعرتُ، أوّل ما شعرت، بثقل الهواء المشبع بأنفاس الأزهار من ورود وزنابق وياسمين وغيرها. حتّى كأنّ الغرفة دكّان زهّار من الطبقة الأولى.

«جئتَ تعزّيني ببهاء يا صديق بهاء الأعزّ؟» قالت الأمّ ذلك، وكانت جالسة عند رأس السرير، ومدّت يدها لتصافحني. ولكنّها عادت فسحبتها بحركة عصبيّة لتمسح أَجفانها بمنديلها. وكأنّها خجلت من ضعفها، فوضعت كفّيها على عينيها، ثمّ انحنت برأسها فوق طرف السرير محاولة أن تخفي وجهها في غضون اللحاف. وبقيتْ كذلك دقائق ما كنتُ أسمع في خلالها غير نشيجها المتفاوت النبرات. ولقد هالني شحوب وجهها وازرقاق تحت عينيها.

أمّا بهاء، فكانت ملقاة على سريرها تحت لحاف رقيق من الحرير الأخضر تراكمت عند أعلاه وسادات حريريّة مطرّزة، مختلفة الشكل والحجم واللون، وكانت يداها مسبلتين فوق اللحاف، ووجهها النيّر الهادىء في إطار بديع من شعرها الكستنائي اللامع. أجفانها مطبقة، وعلى وجنتيها حمْرة لطيفة شفّافة. فلو أنَّ إنسانًا غير واقف على حكايتها نظرها في تلك الحالة لَما ظنّها غير

نائمة أهنأ نَوم، وغير حالمة ألذّ الأحلام. بل إنّني أبصرتُ بسمة ألطف من بسمة الفجر تطفو على أساريرها ثمّ تغيب، ثمّ تطفو من جديد، نظير تلك البسمات التي تعرفها وجوه الأطفال الرضّع في حالة النوم.

«تقدّم، تقدّم، والمس يدها وخاطبها بمثل ما كنت تخاطبها، لعلّها تسمع صوتك فتفيق.»

امتثلت لأمر الوالدة وتقدّمتُ من السرير وأخذت بيد بهاء وناديتها باسمها. فلمحت خلجة خفيفة في حاجبيها ومثلها عند أطراف شفتيها. واعتقدتُ أنّها سمعتني فناديتها ثانية وثالث ولكنّ عضَلًا من وجهها لم يختلج. عندئذٍ أقلعت عن كلّ محاولة أُخرى، وعدت إلى الوالدة فقلتُ لها محاولًا أن أجعل لكلامي وزن اليقين الذي لا يخالطه أقلّ شكّ:

«بهاء نائمة ومن الحيف أن تزعجوها بالبكاء وبالأفكار السود.»

«أتظنّها تسمعنا؟»

«مَن يدري؟ وسواء أسمعتنا أم لم تسمعنا، أليس أنّ فيها روحًا مثل ما فينا روح؟»

«ولكنّ روحها في دنيا غير دنيانا. فلا منّا إليها، ولا منها إلينا... ولدي، ولدي، ولدي، بهاء! يا بهاء عيني، يا بهاء قلبي، يا بهاء روحي، أين أنت يا بهاء؟»

«أعطني وترًا من كمنجة ذلك اللعين ليوناردو وأنا أردّ إليك بهاء في طرفة عين» – هذا، بالفرنسية، من رجل كنت أجهله ثمّ قيل لي إنّه خطيب بهاء. تفرّسته فألفيته شابًّا قارب الثلاثين، أَنيق الهندام، وسيم الطلعة، ولكن في ملامحه ما يدلّ على أنّه يعيش في ضحضاح من التفكير والإحساس. ما أجبته، ولكن رجلًا آخر قيل لي إنّه المدّعي العام وإنّه كان يطمع في يد بهاء قبل خطبتها، تطوّع للجواب فقال:

«لسنا في الأجيال الوسطى والحمد لله. بل نحن في القرن العشرين – قرن النور والتمدّن – والقانون الحديث لا يقيم أقلّ وزن للسحر، فلا ينصّ على معاقبة السحرة».

«أمّا الدين فيعترف بالسحر وينذر السحرة بنار جهنم» – هذا من رجل دين جالس بين فتاتين جميلتين.

الخطيب (خالطًا الفرنسيّة بالعربيّة وداعمًا لسانه بيديه وحاجبيه وكتفيه): ليتك كنتَ معي يا سيّدي أمس عند الشيخ «أبو طقّة». لقد نظر في بلّورته طويلًا فرأى ذلك الخسيس ليوناردو ووصفه لي أدقَّ وصف. وما أبصره من قبل في حياته.

المدّعي العام (هازئًا): أما وصف لك المكان الذي هو فيه؟

الخطيب (بحدّة): بكلّ تأكيد. فقد رآه على ظهر باخرة. وأكّد لي أنّنا لو استطعنا الحصول على كمنجته، أو على وتر من أوتارها في الأقلّ، وحرقناه وبخّرنا بهاء بدخانه لَانفكّ عنها السحر في الحال وعادت كما كانت بالتمام.

فتاة: ألا يستطيع «أبو طقّة» أن يأتيك بالكمنجة من حيث هي؟

الخطيب: سألته عنها فقال إنّها على رفّ في غرفة مظلمة من بيت في الجبل. ووصف لي صاحب البيت وصفًا يكاد ينطبق على حضرة الأفندي (وأشار إليّ، فأجفلت).

سيّدة: ولكن ما أبحرت من مرفإنا ولا باخرة في الأيّام الخمسة الأخيرة.

الخطيب: لا أدري. ولكنّني واثق من كلّ ما قاله «أبو طقّة». وواثق من أنّني سأكتشف مقرّ ذاك اللعين.

المدّعي العام: التحقيق يسير سيرًا حسنًا. والعدالة ستأخذ مجراها بحزم وصرامة. وقد تبيّن لنا حتّى الآن أنّ الرجل ما يزال ضمن البلاد، وأنّه دخل البلاد بجواز مزوّر. وهذا وحده كافٍ لملاحقته ومحاكمته. فكيف وهو سارق فوق ذلك؟

رجل الدين: يفعل الله ما يشاء.

الوالد: ولماذا شاء أن ينزل بنا مثل هذه النازلة؟ ما هي المعاصي التي ارتكبناها؟

رجل الدين: الله يجرّب خائفيه. وافتقاد الله رحمة.

الوالدة: ليته يجرّب الذين لا يخافونه. وليت رحمته لم تأتنا في شكل هذه النقمة الهائلة. لكنّني ذاهبة قريبًا إليه. وسأطلب منه حسابًا عن عذابي... الله غفرانك.

الوالد: ليستغفر الله الكافرون بالله. أمّا نحن فأحرى بأن يستغفرنا الله من أن نستغفره.

عندئذٍ ما تمالكت عن الكلام فقلت لصاحبي:

«هذا جبر يا سليم ما عهدته فيك من قبل. وهو وحده كافٍ لأن يجلب عليك فوق ما أنت فيه».

الوالدة: أجل، هو جبر يا صديقي. ولكن ماذا تفعل بقلب الأمّ؟ يا ويحه قلبًا. فهو يكاد ينفجر. بل إنّه منفجر قريبًا. وأنا أرى الموت على قيد باعٍ منّي. عجّل يا موت، عجّل. لا كانت حياة بهاؤها قتام، ولدي! ليت هذه الغفوة كانت لأجفاني. ربّي، أما تقبلني فدية عنها؟ ولدي، ولدي، ولدي!

واستخرطت الأمّ في البكاء، وراحت تنبش شعرها وتلطم خدّيها وتشهق وتزفر. وهنا دخل الطبيب فحيّا الحضور مبديًا دهشته لكثرتهم. وأفهمهم بلطفٍ أنّ وجودهم في غرفة المريضة من شأنه أن يُضعفها لا أن يُقوّيها. فهي أحوج ما تكون إلى السكينة. وأنّب الممرّضة الجالسة عند آخر السرير لأنّها لم تتدارك الأمر. فهزّت بكتفيها كأنّها تقول: «وما حيلتي في أناس لهم أُنوف ولا يشمّون؟» ثمّ دنا من الوالدة وأخرجها برفق من الغرفة وهي شبه مشلولة وهو يهوّن عليها مصابها فلا يهون.

* * *

ما فرغ البيت من العُوّاد والزّوار وذوي الأغراض والمتطفّلين إلّا في ساعة متأخّرة من الليل. فلم يبقَ سوى الخدم والممرّضة وسيّدة اسمها وداد عرفتُ أنّها شقيقة صاحب البيت، وأنّها أرملة تعيش

مع ولديها القاصرين في قرية مجاورة للمدينة. وكان سليم – كمن خولِط في عقله – آنًا يعبس، وآنًا يبسم. يتنقّل من غرفة إلى غرفة، ومن كرسيّ إلى كرسي. يطفىء الضوء هنا وينيره هناك. يتمتم ويهمهم. يشعل لفافة من التبغ ويلقيها في المنفضة ثمّ يشعل غيرها. وأخيرًا انصرف إلى حيث لا أعرف. وكأنّه ما كان يشعر بوجودي ووجود شقيقته التي دنت مني بلطف واحتشام ومدّت يدها مصافحة وقائلة:

«ما هي المرّة الأولى أُصافحك فيها، وإن تكن يدانا ما تلامستا من قبل». قالت ذلك بصوت فيه من الرقّة واللطف والعذوبة مثل ما في وجهها من الأنس والصدق والوداعة. وبذاك جعلتني أشعر كما لو كنت في الواقع أعرفها من زمان. فأجبتها بدون أدنى تكلّف:

«هذه مفاجأة حلوة حقًّا. فقد كان من الواجب أن أعرفك منذ عرفت أخاك سليمًا. ولكنّه – وذاك من الغرابة بمكان – ما فاه لي يومًا بكلمة عنك. بل حملني على الظنّ أنه وحيد.»

فابتسمت ابتسامة ذات معنى وقالت وفي صوتها بعض الغصّة:

«لا تعجب. فسليم يخجل من أن يعترف بي شقيقة له أمام الناس. وكذلك نور الهدى، زوجه، فهي تخجل بي أكثر منه. ولولا محنة هما فيها اليوم، ولولا محبّتي لبهاء، لمَا رأيتني هنا».

«لا أفهم. أهو خلاف على إرث أم ماذا؟»

«لا شيء من ذلك. فقد تنازلت له عن حصّتي في الإرث – وهي لا يُستهان بها – من تلقاء نفسي. لكنّه حنق عليّ وأنكرني لأنّني تزوّجتُ، رغم إرادته، من شابّ إيطاليا فقير كان يعلّم البيانو. وقد كنتُ سعيدة في زواجي. ثمّ مات زوجي من عشر سنوات تاركًا لي طفلين – صبيًّا وابنة – والبيانو ومهنة تعليم البيانو. وها نحن – أنا وولداي – من نعمة الله بألف خير.»

«ألِذاك وحده أنكرك سليم؟ أمرٌ لا أكاد أصدّقه.»

«لِذاك ولأنّه يعتقدني غريبة الأطوار، وإن شئت فقلْ «مهزوزة». وبعد سكتة قصيرة: «ولعلّك من بعد حديثي معك، ستوافقه في ما يعتقد».

«معاذ الله. أنا أحبّ غريبي الأطوار».

«ولأنّي آنستُ ذلك فيك ما تردّدتُ في «طرح شرّي» عليك». ومشت إلى زاوية فيها مقعدان وثيران ودعتني إلى الجلوس فجلسنا. وكان ينير الزاوية قنديل كبير من الكهرباء مغطّى بغطاء من الحرير اللازوردي المبطّن بحرير ذهبيّ، وقد قام على عمودٍ عالٍ من الآبنوس، فبدا كلّ ما حواليه في نصف عتمة أو في ما يشبه الغسق. وما إن جلسنا حتّى بادرتني بسؤالها.

«أبعينَيكَ نعاس؟»

«النعاس بعيد جدًّا عن أجفاني وعن أفكاري.»

«إذن لا بأس لو تسامرنا قليلًا. أتؤمن بالخوارق؟ بما يخرق ثمّ يجتاز ما ندعوه خطأً حدود الطبيعة – كأنّ للطبيعة حدودًا؟»

«كثير هم الّذين يدّعون معرفة الحدّ الفاصل ما بين الممكن والمستحيل. أمّا أنا فأقول أنّ لا حدّ بينهما سوى ما يقيمه الجهل والقصور.»

«أحسنتَ، أحسنتَ. وإذن فما رأيك في ما حدث لبهاء؟»

«صدّقيني أنّني ما كوّنتُ رأيًا بعد. ما رأيك أنتِ؟»

«رأيي أنّ بهاء ليست من هذا العالم. وأخي وزوجه وباقي الناس يأبون إلّا أن يرَوا فيها أنثى كسائر الإناث. لذلك عقدوا خطبتها على هذه المومياء الثرثارة المحنّطة بالإناقة والطيوب والتي اسمها فؤاد الفهداوي. بحقّك هل رأيت أم سمعت بَلادة كبَلادته أو بلاهة كبلاهته؟»

«دعينا منه. ولنعد إلى بهاء.»

«بهاء تأبَى التدنّس به أو بسواه.»

«وليوناردو. أما تظنّين أنّها أحبّت ليوناردو؟»

«ليوناردو كذلك ليس من هذا العالم. هو فلتة من فلتات الزمان. أرأيته؟ أسمعته؟»

«نعم رأيته وسمعته.»

«ألا توافقني في ما قلت عنه؟»

«رجل حسّاس وموهوب – نعم. رجل أمين وصادق – نعم. أمّا أن يكون ملاكًا أو من طينة غير طينة البشر – عفوَك! ذاك ما لا يطاوعني لساني على النطق به.»

«ليتك عرفته مقدار معرفتي له. إذن لَما تردّد لسانك قط.»

«أوَتعرفينه من زمان؟»

«منذ كان يافعًا. وأعرف تاريخ حياته منذ طفولته. فقد جاءت به أمّ زوجي – قبل أن تكون حماة لي وقبل أن يكون زوجي زوجي – جاءت به لقيطًا من المقبرة. وكانت أرملة. فربي مع وحيدها – زوجي – الذي كان أكبر منه بعشر سنوات. وعندما أتقن زوجي البيانو وانصرف إلى تعليم الموسيقى أدهشه أن يرى ليوناردو قد فاته بمراحل. فقد كان يقول لي: ليوناردو سيكون له شأن عظيم. ومات زوجي فاختفى ليوناردو. فما عدت أعرف عنه شيئًا. وإذا بي، بعد سنوات، أسمع بأنّه يلعب في فندق أخي. فلا أُحاول الاتّصال به، لأنّه، لسبب أجهله، ما أحبّ أن يتّصل بي من تلقاء نفسه. ثمّ أسمعُ بما كان من شأنه وشأن بهاء. فلا أعجب ولا أستغرب.»

«أيَعرف أحد سواك هذه المعلومات عن ليوناردو؟»

«لا أحد.»

«ولماذا لا تبوحين بها للمدّعي العام؟»

«المدّعي العام؟ وماذا يفهم المدّعي العام أو غيره من هذه الأمور؟ فهو لا يهمّه من ليوناردو سوى تذكرة الهوية. والمسكين لا تذكرة لديه. وأخشى، إذا حظي به المدّعي العام، أن يدفنه حيًّا في السجن. لا. ما بحت ولن أبوح بهذه الأمور لغيرك. وأرجو أن تحفظها في سرّك.»

«وما الحكمة في التكتّم، لا سيّما إذا كان فيه ما يضرّ بقضيّة الاثنين ليوناردو وبهاء؟»

«لا بدّ من التكتّم حفظًا لكرامة الاثنين. إذ أنَّى للناس أن يفهموا أنّ بهاء وليوناردو قد انتقلا؟»

«انتقلا؟»

«نعم. نعم. انتقلا إلى العالم المعَدّ لهما من زمان.»

«لا أفهم.»

«ومثلك يجب أن يفهم. انتقلا بروحَيهما من الأرض إلى السماء. وقد أبصرتهما بعينيّ هاتين الخاطئتين. أبصرتُهما يتعانقان وقد التفّا بوشاح واحد نورانيّ. ثمّ أبصرتهما يرتفعان عن الأرض رويدًا رويدًا، كما يرتفع عمود من البخّور في الهيكل. وكانت السماء محجّبة بحجاب من السحب الحائرة ما بين لون الثلج والرماد. وإذا بكوّة تنفتح في وسطها. وإذا بليوناردو وبهاء الموشّحين بالنور يدخلان تلك الكوّة، فتنغلق على الأثر وتعود السماء حجابًا واحدًا من الثلج والرماد.»

لقد كانت جليستي تمثّل حديثها تمثيلًا كأنّها على مسرح. فآنًا ترفع صوتها، وآونة تخفضه حتّى الهمس. وتبسط ذراعيها ثمّ تضمّهما، وتصوّر بيديها شكل العمود النورانيّ والكوّة المفتوحة في السماء، وترفع عينيها إلى فوق. فما بلغت نهاية حديثها حتّى كانت قد انتصبت واقفة، ويداها مرفوعتان إلى أعلى، وعيناها شاخصتان إلى السقف، وفمها مفتوح فتحة الدهشة والأخذ والخشوع، وشعرها الأشقر المتماوج مسدول حتّى الكتفين، والمصباح يرسم على وجهها الشاحب وقامتها المديدة المغلّفة بثوب برتقاليّ خيالات غريبة من النور الهادىء المكبوت، والظلّ الحالم الهانىء.

«ما هذا، ما هذا؟ أمساخر في مقبرة؟ لا بارك الله فيكِ يا وداد. فلا حرمة عندك حتّى للمقابر. أما تعرفين أنّ بيتي قد استحال قبرًا؟ وما ذنب هذا الرجل حتّى تحرميه النوم؟ عذرك يا صاحبي، ولا تعتب عليها. أمّا أنا فشفقتك أَولى منّي بعتبك. لقد ضاع عقلي. لا تلمني.»

لم أعلم كيف دخل علينا سليم من غير أن ننتبه له. ورحت أخشى اصطدامًا بينه وبين شقيقته. إلّا أنّها لم تفُهْ بكلمة واحدة. وتقدّم منّي سليم، وهو يكثر من الاعتذار، وأخذني بيدي وقادني إلى الغرفة المعدّة لنومي. فالتفتُّ إلى السيّدة التي ما برحت واقفة في الزاوية وقلتُ بكلّ احترام وإخلاص:

«تصبحين على خير يا ستّ وداد».

وَادي العَذارى

أخذ الصّيف يطوي بساطه الرحب، والحال في بيت الكرّام تتدرّج من سيّىء إلى أسوأ. فبهاء في غيبوبتها المحيّرة تذوب ذوبان الحلم الجميل في غمغمات النهار، وأمّها على قيد أنملة من الموت، وأبوها يتداعى جسمه الجبّار يومًا بعد يوم، ولا يذكي الحياة فيه إلّا شوقه المحرق إلى الانتقام من ليوناردو، وليوناردو ما تمكّن أحدٌ من أن يقف له على أثر. فقد ذهبت مساعي المدّعي العام ورجاله، من هذا القبيل، أدراج الرياح، وأنا أتنقّل بين البحر والجبل وكأنّني فقدت صداقة الاثنين. فلا البحر يفتح لي قلبه، ولا الجبل يبشّ لي، كسابق عهدي بهما.

[redacted]



[redacted]

وكان يوم حاصرتني فيه جمهرة من الأفكار النقّاقة، النعّابة. لا سيّما وقد بلغني أنّ السيدة نور الهدى تعالج آخر سكراتها الأرضيّة، ولم يكن في مستطاعي النزول إلى المدينة قبل صباح اليوم الثاني. وعندما ضقت ذرعًا بأفكاري حملتها إلى قعر وادٍ سحيق الغور يدعوه أهل الجوار وادي العذارى. وهو وادٍ له الكثير من بيض الأيادي عليّ. فما نزلته مرّةً ضيّق الصدر، غائم الفكر، إلّا عدت منه وصدري كالفضاء رحابة، وفكري كحدقة النسر صفاءً.

أخدود رهيب بعمقه، رائع بجلال الصخور الشاهقة القائمة عن جانبَيه، وقد نحتت فيها العناصر من غريب الأشكال وطريفها ما ليس يستوعبه نظر أو خيال، وغرست في شقوقها أصنافًا كثيرة من الأشجار والأعشاب البرّية فبدت كأنّها البساتين المعلّقة في الهواء. أمّا قاعه فيكاد يكون صفيحة واحدة من الصخر الأغبر الصلد وقد صقلتها سيول الخريف والمياه المتدفّقة من الثلوج في الربيع، وحفرت فيها أجرانًا متفاوتة العمق والهندسة، منها جرن واحد يبلغ قطره الذراعين وعمقه الذراع ويبقى مترعًا بالماء الزّلال البارد طيلة أيّام الصيف، فلا يفيض ولا ينقص، في حين يجفّ كلّ جرن سواه. وأهل الجوار يعتقدون أنّ فيه عين ماء عجائبية يدعونها «عين الدموع» – ذاك بالاختصار هو وادي العذارى.

إنحدرتُ إليه في ذلك اليوم بُعَيد أنْ أخذَتِ الشمس تنحدر من السَّمْتِ نحو البحر. وكان الحرّ ما يزال قويًّا، والصخور الملساء التي رحت أقفز منها أو أنزلق عنها ما برحت وجناتها متوهّجة بقبلات الشمس. وما زلت أقفز من صخر إلى صخر وأنزلق عن حافّة جرن إلى حافّة جرن حتّى بلغت الجرن الذي فيه «عين الدموع». وكان على حافّته عصفورتان تستحمّان. فروّعهما خيالي، وبسرعة البرق اختفتا عن ناظريّ بين حنايا الصخور.

ألفيتُ الجرن، كما عهدته، طافحًا بالماء النمير، وألفيتُ جوانبه مفروشة بالرمال الحريريّة والحصى الصقيلة المتراوحة حجمًا ما بين حبّة العدس والجوزة، وقد تجمّل بعضها بعروق ملوّنة فبان كأنّه من الحجارة الكريمة، وتزيّا بعضها بأزياء غريبة الشكل، دقيقة الصنع إلى حدّ يفوق الوصف والتصوّر.

جلستُ، كعادتي، على الرمل وأخذت أذرّيه بيد، وأجمع بالأخرى الحصى فأقبض منها قبضة ومن بعد أن أفركها في قبضتي أُلقيها واحدة واحدة فأسمع طقاتها إذ تقع بعضها على بعض. وأطرب لها كما لو كانت موسيقى ملائكيّة. وعندما أملّ ذلك أروح أجمع الرَّمل كومًا كومًا وأرتّب عليها الحصى مثلّثات ودوائر ومربّعات، أو أشكالًا لا تعرف هندسة معلومة ولا قياسًا مألوفًا. ثمّ أعود فأنقّي الرمل من الحصى، وأبسطه بكفّي، وأشرع أرسم فيه بسبّابتي رسومًا لا تخضع لنظام، أو أكتب كلمات لا يربطها معنى. ثمّ أنصرف عن الرمل والحصى إلى الماء في الجرن فأغمس فيه

طرف عصاي وأنطلق أُحرّكه حركات خفيفة وعيناي تتبعان الدوائر السحرية المرتسمة على وجهه، والدردور اللطيف المكوّن عند آخر العصا.

كان ظلّ الصخور من خلفي قد غمر من الجرن أكثر من نصفه فانعكست على صفحة الماء خيالات عجيبة، فتانة. وكان الظلّ ناعم الملمس، نديّ النفس، يلفّ سكينة مخمليّة ترهف الحسّ إلى درجة لا تُطاق. فلقد خُيّل إليّ أنّي أسمع زحفه الرفيق، الوئيد على صفحة الماء وعلى ضلوع الصخور والأشجار والأعشاب. مثلما خُيّل إليّ أنّ النسائم البليلة التي كانت تدغدغ أجفاني لم تكن غير هدير مياه زاخرة متدفّقة من الجبل إلى الوادي وجارفة كلّ شيء في سبيلها إلى البحر.

وأنا كذلك وإذا بشيء كأنّه الحجر ينقضُّ من علُ ويضرب صفحة الماء في الجرن أمامي فتتطاير منه قطرات في كلّ جانب أتفرّد منها بنصيب كبير. وإذا بذلك الشيء حجل كبير، جميل، وإذا بالماء في الجرن قد امتشج بحمرة الدم.

التقطتُ الحجل فألفيتُه ما يزال حيًّا وقد انخلع أحد جناحيه، وساح الدم من صدره، وانكسرت رجلاه فوق الأظافر وما تزالان معلّقتين بالجلد لا غير. فانحنيت على الطائر الجريح أدلّك بيدي رأسه الجميل وأجفّفُ الريش على ظهرِهِ وصدره المبلّلين بالماء والدم، وهو، على ما به من عجز وألم، يحاول أن يفلت من يدي، جاهلًا أنّ نشوة امتطاء الهواء، وعنجهيّة القفز من صخر إلى صخر، ولذّة الدرج الخاطف على التراب قد أفلتت كلّها منه، وأنّ الحياة ستفلت من بين أضلاعه في دقائق معدودة.

«يا هو – و – و!»، نداء قريب أجشّ دوّى له الوادي. فالتفتّ وإذا على قمّة صخر باسق قبالتي عملاق متّكيء على بندقيّة وقد امتدّ ظلّه على الصخر مسافة بعيدة، وعندما أيقن أنّ نداءَه قد استرعى انتباهي عاد فَرَماني من علوه بسؤال عمّن عساني أكون وعمّا إذا كنت قد رأيتُ حجلًا وقع بالقرب منّي. فرفعت الحجل بيدي ولوّحت له به. وفي الحال اختفى عن ناظري ليعود بعد دقائق فيظهر بجانبي.

لم يكن الرجل غير ناطور المنطقة. وبيني وبينه معرفة قديمة وصداقة خالصة. فهو، على خشونة مظهره، قد جمع إلى قوّة البدن وجمال الصورة نعومة البساطة ونقاوة الفطرة مع الكثير من عزّة النفس والبديهة النيّرة. حتّى ليصحّ فيه القول إنّه من الذين يُستساغ شربهم مع الماء العكر. وهو أمهر صياد في الناحية على الإطلاق. وله حكايات كثيرة وطريفة عن مواقعه مع الوحوش والطيور واللصوص، وقد خسر في معركة مع دبّ ثلاثًا من أصابع يده اليسرى، الإبهام والسبابة والوسطى، ولكنّه في النهاية قتل الدبّ ونجا بحياته. أمّا كنيته فأبو منصور.

جلس أبو منصور بالقرب منّي على حافّة «عين الدموع» ومن بعد أن سلّم كثيرًا واعتذر كثيرًا عن ندائه لي «يا هو» وقصّ عليّ حكاية الحجل الجريح ومطاردته له نحو الساعتين، بسط كفّيه

على حافة الجرن وانحنى فوقه وراح يعبّ من الماء عبّ من كاد العطش يودي بأنفاسه. وعندما استوى جالسًا مسح فمه وشاربَيه بيده ثمّ تنفّس الصّعداء وربّت صدره ثلاثًا وقال:

«خَي! هذا ماء يُشرَب. لقد صدق الذين دعوا هذه العين «عين الدموع». فماؤها أصفى من الدموع. ولكنّها دموع لا ملح فيها. فهي من الجنّة».

قلتُ وبي شيء من الخجل لجهلي ما كان من واجبي أن أعرفه كواحد من أبناء تلك الناحية:

«أتعرف يا أبا منصور لماذا دُعيَت هذه العين عين الدموع وهذا الوادي وادي العذارى؟»

فأجابني بكثير من الدهشة: «أتجهل ذلك وأنت من عشّاق هذا الوادي، وأنت العليم بأشياء كثيرة نجهلها نحن البسطاء؟ إذًا سأقصّ عليك ما ليس يجهله عندنا غيرك.» وناولته لفافة وأشعلتها له، وأشعلتُ أخرى لي، ورحت أصغي لحكايته:

«يُحكى أنّ أميرًا عظيمًا كان يقطن هذه الناحية في قديم الزمان. وكان له ثلاث بنات ما رأت عينٌ أجمل منهنّ خَلقًا ولا أكمل خُلقًا. وكان طلّاب الزواج يتقاطرون عليهنّ من كلّ صوب فما يجد أحدهم حظوة في عيونهنّ. والأمير شغوف ببناته إلى حدّ العبادة فما يطاوعه قلبه على تقييد حرّيتهن في أمر من الأمور.

«وكان للأمير راعٍ شاب يرعى أغنامه. وكان الراعي على جانب عظيم من الجمال وقد أتقن النفخ في الشبّابة (ناي من قصب) إلى درجة بلغت حدود السحر الحلال. وكان أنّ بنات الأمير رأين ذلك الراعي وسمعن شبّابته فانجذبن إليه ووقعن في حبّه، إلّا أنّ كلّ واحدة منهنّ كانت تكتم حبّها عن شقيقتيها وعن الراعي، والثلاث كنّ يكتمنه عن الأمير. أمّا الراعي فما عرف أحد أنّه نظر يومًا إلى إحداهنّ غير نظرة احتشام أو أنّه كلّم مرّة إحداهنّ بكلمة.

«وكان الراعي يسرّح أغنامه في هذه الجهات ويكثر من التردّد إلى هذا الوادي. وذات يوم، وقد برَّح الشوق بالشقيقات، استأذنت الصّغرَى أباها بالخروج إلى النزهة وحدها فأذن لها. وبعد قليل فعلت الوسطى كذلك. ثمّ بعد قليل فعلت الكبرى ما فعلته شقيقتاها. فقد راح قلب الواحدة منهنّ ينبيها بأنّ عند شقيقتَيها مثلما عندها من الوله بالراعي، وراحت كلّ واحدة تخشى من أن تسبقها الأخرى إلى اكتسابه والاستئثار بحبّه.

«ولشدّ ما كانت دهشة الشقيقات الثلاث وخجلهنّ الواحدة من الأخرى عندما وجدن أنفسهنّ في قعر هذا الوادي، وعلى حافة هذا الجرن، كأنهنّ كنّ على موعد. أمّا الراعي فما حظين به. إذ ذاك تفجّرت قلوبهن دموعًا من مآقيهنّ. وبقين يبكين ويبكين إلى أن امتلأ هذا الجرن وما برح ملآن، لا يزيد ولا ينقص ولا يأسن، من ذلك اليوم.

«وأخيرًا أقبل الراعي بشبَّابته وليس مَن يدري ماذا كان من بعد. فالشقيقات ما عدن إلى البيت، والراعي اختفت آثاره، والتفتيش الدقيق، الطويل، ما بلغ نتيجة قطّ. والأمير قضى بحسرته على

بناته بعد سنين، فانقرضت سلالته وتبعثّر ملكه. وهكذا أطلق الناس على هذا الوادي اسم «وادي العذارى» وعلى هذه العين اسم «عين الدموع».»

قلتُ وقد راقتني الأسطورة: «كيف يمكن أربعة من الناس أن يختفوا بمثل تلك السهولة يا أبا منصور فلا يُعثر لهم على أثر لا في هذه البقعة ولا في غيرها من الأرض؟»

«فاتني أن أخبرك ما يروونه عن تلك المغارة التي في الصخر من خلفك. فقد وجدوا فيها، على ذمّة الرواة، وبعد أجيال مضت على موت الأمير، ثلاثة هياكل بشريّة يُقال إنّها ما كانت غير هياكل العذارى الثلاث. أمّا أنا فلا أنفي الرواية ولا أثبتها. والأمر الجدير بالذكر – وقد تضحك منّي – هو أنّني أسمع في بعض الأيّام صوت شبَّابة في هذا الوادي وأسمع أصوات نسوة باكيات. ولكنّي ما أبصرت حتّى الآن نافخ الشبَّابة ولا النسوة الباكيات. وهناك من يؤكّدون أنّهم أبصروا غير مرّة، لا سيّما في ضوء القمر، ثلاث صبايا في ثياب بيض يمشين في أثر شابّ ينفخ في شبَّابة. ولك أن تصدّق أو أن لا تصدّق.»

«وهذه المغارة، يا أبا منصور، أما دخلتها في حياتك قط؟ إنّي أكاد أرى الوصول إليها مستحيلًا». وأدرتُ وجهي إلى المغارة في الصخر الذي ورائي. وكانت فوهتها المستديرة تعلو عن القعر نحو الأربعة من الأذرع ويبلغ قطرها نحو الذراع لا غير. والصخر من تحتها يكاد يشبه مقدّمة باخرة، وقد ظهرت فيه بعض النواتىء والشقوق، منها واحد تحت مدخل المغارة نبتت فيه بطمة قويّة تكاد أغصانها تحجب المغارة. قال أبو منصور:

«دخلتها مرارًا. أمّا تسلّق الصخر من تحتها فلا يخلو من المغامرة. لكنّه لا يستحيل على جبليّ مثلك. وهل العيش، يا صاحبي، إلّا مغامرة دائمة؟»

بعد قليل ودّعني أبو منصور. وكدت أخسر صداقته عندما رفضت قبول الحجل الجريح هديّة منه قائلًا إنّني أوثر التمتّع بمنظر الحجل دارجًا على الصخور، وبكرّات صوته مناجيًا خليلته مع الفجر وبعد الغروب، على التمتّع به جيفة محشوّة بالألم أحشو بها جانبًا من جوفي. فقد اشتمَّ في قولي تأنيبًا له، وإن لطيفًا، واستخفافًا بشهرته كصيّاد، وتجديفًا على الله الذي حلّل للإنسان قتل بعض الطير والحيوان والاستمتاع بلحومها.

ما كاد وقع خطوات الناطور يموت في أذنيّ، وقامته المديدة تحتجب عن ناظريّ، حتّى رحت أرسم خطّة الوصول إلى المغارة. فآنًا أحجم وآنًا أُقدم. وأخيرًا تغلّبتُ على المخاوف ورحتُ أتسلّق. أما قال أبو منصور إنّ الحياة مغامرة دائمة؟

لقد نجحت مغامرتي وكانت نتيجتها فوق ما كنتُ أتصوّر بكثير. فما دخلت المغارة حتّى وجدتني في بهو فسيح مستدير، قبّته وجدرانه من الصخر الصلد وكذلك أرضه. فيه رفاريف وأفاريز وشبه تماثيل غريبة الأشكال. فكأنّه منحوت بالمطرقة والإزميل. ولكن لا أثر فيه ليد

الإنسان على الإطلاق. والذي أدهشني فيه قبل كلّ شيء، ثعلبان منطرحان على الأرض وقد تمدّد أحدهما بطوله واضعًا رأسه بين ذراعيه، والتفّ الآخر على ذاته ساترًا خطمه بكلتا يديه.

وقفتُ جانبًا لأفسح للثعلبين مجالًا للهرب. فما خامرتني ريبة قطّ في أنّهما كانا نائمين لا غير. فكلّ ما في منظرهما كان يدلّ على ذلك. إلّا أنّني عجبت أشدّ العجب لهما كيف لم يستفيقا على الحركات الكثيرة التي بدرت منّي إبّان تسلّقي المغارة وبعد دخولها. ولكنّهما ما كان ليستفيقا. إذ ذاك أيقنتُ أنّني كنت على خطأ في ما اعتقدته من نومهما. ودنوت منهما لأتثبّت من أنّهما ثعلبان سويّان لا خيالان. فألفَيتُهما يتنفّسان تنفّسًا متّزنًا هنيئًا، فهما من العافية والسلامة على أحسن ما يمكن لثعلبَين أن يكونا. حاولتُ أن أوقظ الواحد، ثمّ الآخر، بيدي. فما استيقظ لا هذا ولا ذاك. وحانت منّي التفاتة إلى رفّ من رفوف المغارة فأبصرتُ عليه قصبة مستطيلة. وإذ تفقّدتها وجدتها شبّابة.

عندئذٍ شعرت بما يشبه دبيب النمل في جسدي، ثمّ شعرت كأنّ عيونًا كثيرة لا أبصرها تحملق بي من كلّ جانب من جوانب المغارة. فما عرفت كيف خرجتُ منها وكيف بلغت الأرض. وكان الظلّ في الوادي قد تكاثف والنور على القمم يتلاشى. فاقتربتُ من عين الدموع وحفنتُ من مائها حفنة بللتُ بها جفاف حلقي. ثمّ أخرى طرحتها على وجهي. وعدت أدراجي أجرّ ورائي ألف فكر وألف خيال.

شَهْلَبَة ومَهْلَبَة

بعد أيّام عدتُ إلى وادي العذارى وبي من الشَّوق إليه أكثر ممّا شعرت به في أيّ وقت سابق من حياتي. فقد كان ما شهدته وسمعته في مأتم السيّدة نور الهدى ما يزال ملء مسامعي وأجفاني من حزن ساحق، وتفجّع مذيب، ولوعة نهّاشة يواكبها الرياء ، والتدجيل، والتشفّي، والشماتة، والدموع الكاذبة وقد تردّت كلّها بأثواب الحداد الضاحك، الهازىء، اللامبالي.

مجد يتقوّض، وعزّ يذلّ، وغنى يغدو أفقر من الفقر، وسعادة تكشّر عن أنياب تعاسة، ومروج من الآمال الخضر تتحوّل صحارى مقفرة من كلّ أمل وحياة، وملفوحة برياح اليأس والموت لا غير. ذاك هو بيت سليم الكرّام كما تراءى لي في ذلك المأتم الرهيب. ولكَم آلمني أن أبصرَ عميدَ البيت وصديقي وقد تحجّرت مقلتاه فلا يكاد يرفّ له جفن، وتكلّب فكّاه فلا ينبس بكلمة، وهربت نضرة الحياة من وجهه فتركتْه بلون الشمع؛ أجل، لكَم آلمني أن أرى ذلك الرجل الجبّار الذي كان يفيض عافية ومرحًا وغبطة بالحياة يتحرّك بين الجماهير حركات ميكانيكيّة لا حياة فيها، وألّا يكون في مستطاعي أن أردّ إليه بارقة ضئيلة من الأمل.

لقد كنتُ أعرف أنّه لو صحّ لي إنعاش أمله الذاوي بشفاء ابنته لتحمّل مصابه بفقد زوجه بالصبر، ولعاد إليه الكثير من نشاطه وحبّه للحياة. ولكن من أين لي ذلك وبهاء تكاد تكون جثّة هامدة لَولا أنفاس بطيئة ما تبرح تجول في صدرها صعودًا ونزولًا؟ أأُجاريه وأُجاري خطيب بهاء في إيمانهما بما قاله الشيخ «أبو طقّة» من أنّ بهاء مسحورة وأنّ السحر لا ينفكّ عنها إلّا بحرق كمنجة ليوناردو أو وتر من أوتارها؟ أأبوح له بالكمنجة وبما كان بيني وبين ليوناردو بشأنها؟ ولكنَّ في داخلي أصواتًا تهزأ بي إن أنا تدهورتُ بأفكاري إلى مستوى أفكار فؤاد الفهداوي وشعوذات أبي طقّة. ومن ثمّ فبَيني وبين ليوناردو عهد بألّا أبوح لأحد بما كان من أمر زيارته لي بأن أحافظ على كمنجته محافظتي على حدقة عيني، وبأن أحرقها وأدفن رمادها بين جذور صنوبرة منفردة إن هو لم يرجع بين عامَين فكيف أنكثُ عهدي وأعبث بأمانة في عنقي؟ إلّا إذا كان

«أبو طقّة» مالكًا مفتاح أسرار ما تزال مغلقة عليّ. ومن يدري؟ أما قال إنّ الكمنجة على رفّ في بيت في الجبل، وإنّ صاحب البيت يشبهني كلّ الشبه؟ وإذ ذاك فإنقاذ حياةٍ بَل حياتَين، من الموت، لأقْدَس من صيانة عهد لرجل ميت الوجدان كليوناردو، إن صحّ أنّه ساحر.

ولكنّ ليوناردو إنسان طاهر إلى أقصى درجات الطهارة البشرية. ذاك ما أحسُّه في أعمق قرارات نفسي. فهل يكون «أبو طقّة» أصدق حسًّا منّي؟ وليوناردو – لماذا اختفى، وأين هو، وهل من الممكن أنّه لا يعرف ما خلَّف وراءه من نكبات وأوجاع؟

جلست، كعادتي، على حافّة عين الدموع، ووجهي، هذه المرّة، نحو المغارة. ثمّ رحتُ ألعب بالرمل والحصى وعيناي بين الفينة والفينة تتسلّقان الصخر إلى المغارة وأفكاري تشرد إلى الثعلبين والشبَّابة. فتحفّزني حوافز على الصعود وتردعني عنه روادع، لخوف السقوط وخوف المجهول نصيب منها كبير.

بقيت كذلك برهة من الزمن ما دريت بعدها إلّا ويَداي تتلّمسان الشقوق والنواتىء في الصخر المؤدّي إلى المغارة، ثمّ تقبضان على جذع من جذوع البطمة، وقلبي يركض في صدري قارعًا أضلاعه قرع الوجل من خطر محدِق ينتهي بجذل السلامة.

وقفت هنيهة في مدخل المغارة ريثما يكفّ قلبي عن القرع ويعتدل النفَس في صدري. وكانت شرذمة من أشعّة الشمس قد سبقتني إليها من خلال أوراق البطمة فانتثرت على أرضها بقعًا من النور تتخلّلها بقع مماثلة من الظلّ، والنور والظلّ في رقصة عجيبة، أخّاذة موقَّعة على رقصة أوراق البطمة لدغدغات النسيم.

ورحت أنقّل عينيّ في جوانب المغارة لعلّني أبصر الثعلبَين فما وقعتُ لهما على أثر. إلّا أنّني أبصرت الشبَّابة ملقاة على الأرض، وعلى خطوتَين منها كومة من الثياب، أو ما يشبه كومة من الثياب. وعندما اقتربت منها لأتفقّدها وجدتها رجلًا نائمًا وقد طوى ركبتيه حتّى التصق عقباه بأليتَيه، وتوسّد ساعده الأيمن ساترًا بمرفقه معظم وجهه وعينيه، وباسطًا ذراعه اليسرى على جنبه في شكل زاوية حتّى لامست كفّه وركبتَيه. وكان يغطّ غطيطًا خافتًا هادئًا موزونًا.

وقفت وبي من الدهشة والحيرة ما بي. فما أدري أأوقظُ الرجل، أم أصبر حتّى يستفيق، أم أتركه وشأنه وأعود من حيث أتيت. فقد يكون لصًّا اتّخذ من هذه المغارة المنيعة مأوى ومخبأ له. بل الأرجح أنّه لص. وإلّا فما معنى وجوده في مثل ذلك الوادي السحيق، وفي مثل تلك المغارة التي تكاد تمتنع على الأقدام والأبصار كذلك؟ ولكن ليس في المغارة ما يدل أقلّ دلالة على اللصوصية. فلا متاع منهوب، ولا بندقيّة، ولا أيّ نوع من السلاح، حتّى ولا عصا. ليس إلّا الشبَّابة لا غير.

وأنا في مثل تلك الأفكار تململ الرجل في نومه وانقلب من جنب إلى جنب. فبان وجهه الذي كان مستورًا عن عيني. وللحال صحت بأعلى صوتي:

«ليوناردو!».

انتفض النائم، استوى جالسًا، ثمّ فرك عينيه بيديه وحملق بي طويلًا وقال على مهل من غير أن يبدو على وجهه أقلّ أمارات الدهشة:

«لله درّك من شرطيّ سرّيّ!».

«بل لله درّك من هارب عبقريّ! فمَن هداك إلى هذا الوادي وهذه المغارة؟»

«بل مَن هداك أنت؟ أنا ربيب هذه الجبال، وقد عشقت وادي العذارى وعين الدموع من زمان. مع ذلك ما عرفت هذه المغارة ولا دخلتها غير مرّة قبل الآن. وذلك منذ أيّام لا غير.»

«أمّا أنا فقد عرفت الوادي والعين والمغارة قبل أن تَعرفها بأجيال.»

«بأجيال!»

«أجل، بأجيال.»

«وأنتَ دون الثلاثين وأنا فوق الخمسين؟»

«ما أعلم أيّنا الأسنّ، وأعلم أنّني أعتق منك صلة بهذا الوادي فما لقيتك مرّة فيه أيام كنت أنفخ في شبّابتي وأسرح مع أغنامي في هذه الجهات.»

«ما قال لي أحد من الذين يعرفونك حقّ المعرفة إنّك كنت راعي غنم في حياتك.»

«لا ما رعيت غنمًا في هذه الفترة من حياتي.»

«وأيّة فترة تعني؟»

«أعني منذ أن وُلدت.»

«إذن في أيّة فترة من حياتك رعيت الغنم؟»

«قبل أن وُلدت.»

«عدنا إلى الألغاز والأحاجي يا ليوناردو؟ قل لي من أنت؟ ألستَ مَن يقول عارفوك إنّك أنت؟»

«ومن هم الذين يعرفون مَن أنا؟»

«السيّدة وداد – مثلًا.»

«آ – السيّدة وداد؟ لقد قالت لك إنّ حماتها التقطتني طفلًا مهملًا في مقبرة. بارك الله في خيالها الخصب وروحها الجموح. وأين التقيتها؟»

«التقيتها في بيت شقيقها السيد سليم الكرّام.»

«ألعلّه رضي عنها بعد أن أنكرها كلّ هذه السنين؟»

«لا أدري. ولكنّها جاءت لعيادة بهاء. واتّفق وجودي هناك للغاية عينها. فتعارفنا.»

«بهاء... وماذا حلّ ببهاء؟»

«كأنّك تجهل ما حلّ ببهاء وبأبي بهاء وبأمّ بهاء. لقد خربتَ بيتهم إلى الأبد. فبهاء في غيبوبة منذ ليلة خطبتها، وهي تتلاشى يومًا بعد يوم. ووالدها يعدو سراعًا إلى القبر. والتراب على ضريح والدتها ما يزال رطبًا.»

«ماتت؟»

«نعم. ماتت السيّدة نور الهدى من عظم حرقتها على ابنتها. وأنت وحدك المطالَب بموتها.»

«أنا؟ ومن أنا لأسلب حياةً ما أعطيتُها؟»

«ما سلبتها مباشرة. ولكنّك بسحرك لبهاء سبَّبتَ لأمّها الموت. مثلما ستسبَّبه لوالدها من غير شكّ.»

«أهذا قولك أم قول الناس؟»

«هو قول الكثير من الناس. وقد أصبحت ميّالًا إلى الأخذ به.»

«لقد كنت أعتقد أنّك فوق الناس، أتدري أيّنا الساحر وأيّنا المسحور؟ هناك ساحر واحد يا صاحبي هو الحياة. أمّا الناس فكلّهم مسحور. وأنا في جملتهم. ولكنّني مسحور بما لم يُسحَر به أحد من الناس بعد.»

«إعلم أنّك متّهم، علاوة على السحر، بالسرقة والتزوير. فالكرّام يدّعي أنّك سرقتَ كمّية من ماله، والشرطة أنّك دخلت البلاد بجواز مزوّر، والقضاء يفتّش عنك بكلّ ما لديه من الوسائل ليأخذ العدلُ نصيبه منك.»

«حقًّا إنّني في وادٍ والناس في وادٍ. ألعلّني عشت ما عشت من السنين وما عوقبت أو كوفئت بشيء من غير أن أمثل يومًا أمام قضاء الناس؟ فما بال قضاء الناس يرضى بما قضي لي أو عليّ حتّى الآن بدون أقلّ تدخّل منه، ويأبَى اليوم إلّا أن يقحم ذاته في مجاري حياتي، وإلّا أن يقيم من ذاته قاضيًا على القضاء؟ أيظنّني رشوتُ القضاء فعطّلتُ عدله، أم يظنّ القضاء قد نامَ عنّي فهربتُ منه؟ وهل لِحَيّ أن يهرب من قضاء حياته؟ ومن ثمّ فالذي أعطاني جواز الوجود والتمتّع بالأرض والسماء أتظنّه بخل عليّ بالجواز لدخول هذه البلد؟»

«ما دمتَ بريئًا من كلّ ما يُنسَبُ إليك فما معنى هربك على الأثر واختبائك في هذا الوادي؟»

«لأنعم مع الثعالب بما سرقته من ذهب الكرّام!»

«دعنا من المزح يا ليوناردو.»

«وأيّ مزح يا صاحبي في أن يهرب ليوناردو من الناس ليتسنّى له أن يقتصّ من نفسه لنفسه؟ إنّه لمنتهى الشقاوة أن تفصلك شعرةٌ لا غير عن قمة السعادة».

«وما عسى تلك الشعرة أن تكون؟»

«هي خساسة في نفس ليوناردو.»

«أفصح يا ليوناردو.»
«إنّ في التلميح لإفصاحًا لمن يفقهون.»
«ولكنّني لا أفقه.»

عندئذٍ وضع ليوناردو كوعيه على ركبتيه، وأخذ رأسه بين يديه وراح يضغط بهما على صدغيه. وبقي كذلك زمنًا لا يتحرّك ولا يتكلّم، وعيناه محدّقتان بطرف أنفه، حتّى خُيّل إليّ أنّ الرجل ذُهل عنّي وعن نفسه، وأنّه قد انتقل بروحه إلى غير هذا العالم تاركًا في المغارة جسده لا غير. وكدت أبتّ بصدق ما تخيّلت عندما تنهّد ليوناردو ثمّ مدّ يده وتناول الشبَّابة ونفخ فيها نفختين طويلين. وإذا بثعلب، ثمّ آخر، يبرزان من كوّة صغيرة في أقصى المغارة ما انتبهت إليها من قبل. وإذا بالثعلبين يقفزان إلى حضن ليوناردو ويأخذان يتودّدان إليه بشتى الحركات، مبصبصين بذنبيهما، باسطين أيديهما على صدره ومُدنِيَين خطميهما من ذقنه. وهو يمسّد الشعر على ظهريهما بكلتا يديه ويخاطبهما بكلمات تقطر حلاوة ومودّة.

أمّا أنا فرحت أرقب كلّ ذلك غير مصدّق عينيّ وقائلًا في نفسي: «إنّه لساحر من غير شكّ. وها هو يوقعني، أنا كذلك، في شراك سحره». وأخيرًا أومأ ليوناردو إلى الثعلبين فارتدّا عنه وجثما على الأرض واحد عن يمينه والآخر عن يساره، وبقيا كذلك كأنّما ينتظران أمرًا أو يتوقّعان إشارة. والتفتَ إليّ ليوناردو وقال بكلّ برودة كأنّ ما كان يجري أمامي لم يكن غير أمر تافه عاديّ:

«دعني أقدّم لك رفيقيّ الأمينين، هذا شَهْلَبَة وهذه مَهْلَبَة. وقد دعوتهما لعلّهما يفصحان لك أكثر ممّا يساعدني نطقي على الإفصاح عنه».

قال ذلك وراح ينفخ في الشبَّابة. فعوى الثعلبان عواءً منكرًا يبعث القشعريرة في البدن والضباب في الدماغ وبغتة انحدرت نبرات الشبَّابة العالية إلى بحّة خافتة بطيئة ما لبثت أن انقلبت مويجات من النبرات المتقطّعة المتسارعة. فانبرى الثعلبان يقفزان ويأتيان حركات متشابهة متساوقة كأنّها الرقص المدروس حتّى أدقّ تفاصيله. وبقيا كذلك بين قفز وترنّح إلى أن راحت الشبَّابة ترسل ألحانًا مهدهدة متواصلة. وإذ ذاك أخذت حركات الثعلبين تتباطأ وتتلاشى رويدًا رويدًا إلى أن وقع كلاهما على الأرض بغير حراك، كما لو أنّ الإعياء أدركهما فما بقيَتْ في مفاصلهما قوّة على أقلّ حركة.

رفع ليوناردو الشبَّابة عن شفتيه وقال بين هازىء وجاد:
«أرأيت كيف يكون السحر؟»
«أجل. إنّه السحر بعينه.»
«ولكن، أتدري أيّنا الساحر – أهُو أنا، أم الشبَّابة، أم شَهْلَبَة، أم مَهْلَبَة؟»
«ما أدري ولا أريد أن أدري.»
«ولا أنا أدري. ولكنّني أريد أن أدري. لذلك أنا هنا ومعي شبَّابتي.»

«ولذلك تركتَ كمنجتك عندي وولّيت هاربًا؟»

«آ. ذاك أمر ستفهمه فيما بعد. وقريبًا إن شاء الله.»

وسكت سكوتًا طويلًا ممضًّا، والثعلبان كأنّهما قتيلان. وأخيرًا ردّ الشبَّابة إلى شفتيه وراح ينفخ فيها من جديد، ولكنّ ألحانه كانت غير التي سمعتها قبل. وإذا بالثعلبين يتململان وينهضان متثاقلين ثمّ يثبان إلى حضنه نشيطين، فرحين، كأنّ شيئًا ممّا كان لم يكن. وإذا بليوناردو يصرفهما عنه ليعود فيقول لي:

«أمّا وقد رأيت يا صاحبي ما رأيت، وسمعت ما سمعت، فاذهب إلى الناس وقل لهم إنّ ليوناردو ساحر يستحقّ الموت».

«ساحر، ولكنّه لا يستحقّ الموت.»

«أما قلت إنّ سحري قد سبّب موت أمّ بهاء وسيسبَّب موت والدها وموتها؟»

«قلت وما صدّقت ما قلت. ففي داخلي ما يأبَى أن يرى فيك إلّا الخير يا ليوناردو. ولكنّني في حيرة من أمرك. أفَلا أفهمتني بأيّة قدرة تفعل ذلك، ولماذا؟»

«وكيف أُفهِمك يا صاحبي ما لست أفهم؟»

«عجيب! ألا تفهم ما أنت فاعل؟»

«عجيب! نعم عجيب. وأيّ شيء ليس بالعجيب؟ أواثق أنت من أنّك تفهم كل ما يصدر عنك ويعود إليك من الأعمال والنيّات والأفكار؟ هل أنت فاهم لعجيبة التنفّس التي تتمّ فيك ما دمتَ حيًّا؟ ولا أذكر غيرها من العجائب.»

«التنفّس أمر طبيعيّ مألوف. ولكنّ رقص الثعالب على نغم الشبَّابة، ثمّ نزع الحركة منهم، ثمّ ردّها إليهم – كلّ ذلك ليس بالطبيعيّ ولا بالمألوف.»

«ما كان غير طبيعيّ عندك قد يكون طبيعيًّا عند غيرك. ليس في الطبيعة ما يتجاوز حدود الطبيعة، وإن تجاوز حدود المألوف والمعقول عند الناس. ليس في الطبيعة من مستحيل. ويا ليت حدودها ما كانت غير حدود المألوف والمعقول عند الناس. إذن لَما كان أسهلها مطيّة وأسلسها قيادًا للإنسان.»

«ولكنّك تفعل ما لا أستطيع فعله. وأنا إنسان مثلك.»

«لأنّني غير ما أنت، وأنت غير ما أنا. فنحن ما برزنا إلى الوجود في لمحة واحدة ولا سلكنا طريقًا واحدًا، وإن يكن مصدرنا واحدًا ومرجعنا واحدًا.»

«أبِاستطاعتي، لو شئت، أن أفعل ما تفعل؟»

«من غير شكّ. إن لم يكن اليوم فغدًا. فسحر الحياة واحد، ولكنّها تظهره على وجوه متفاوتة في الكائنات المتفاوتة الحسّ والإدراك والميول، أما قلتُ لك إنّ الحياة هي وحدها الساحرة وإنّ كلّ ما

في الكون مسحور بسحرها؟ فما نحن غير مسحورين نسحر مسحورين. ما من حركة نأتيها، أو كلمة نقولها، أو شهوة نشتهيها إلّا كان لها فعل السحر على إنسان ما أو مخلوق ما. وقد تفعل بأناس كثيرين ومخلوقات كثيرة. والساحر الذي تُسَرّ الحياة بأنّ تفيض منه قوّة وعظمة ومالًا هو المسحور بقوّة الحياة وعظمتها وجمالها أي، كلّنا مسحور وساحر يا صاحبي. أما ترى السحر في اهتزازات أوراق هذه البطمة واهتزازات النور والظلّ على أرض هذه المغارة؟ وليوناردو بطمة عجيبة ما تنفكّ أوراقها في اهتزازات عجيبة لا تنقطع فترة واحدة لا في النهار ولا في الليل. أمّا النسائم التي ما تفتر تهزّ أوراقي فأشواق ملحاحة، حرّاقة، أهمّها شوق اللقاء.»

«وأيّ لقاء تعني؟»

«لقاء مَن سحرها كان أشدّ فعلًا بي من سحري بها. فقد جعلت منّي مجموعة عجيبة من الأوتار المشدودة أبدًا، والتي لا تنفكّ تنبض ألحانًا بغير انقطاع. وما شبَّابتي وكمنجتي غير منفذَين ضيّقين أفرّج بهما بعض التفريج عن نفسي المكروبة بما يزدحم فيها من أنغام. أمّا الفرج الذي أرجوه فلن يكون لي حتّى يكون اللقاء.»

«أتسمح لي أن أسألك مَن هي؟»

«لقد ظننتُني لقيتها منذ أجيال يوم كنتُ أرعى غنم والدها فجاءت وتبعَتها شقيقتاها إلى هذا الوادي. ولكنّها أفلتت من يدي حين نفخت لها شوقي في شبَّابتي فغابت عن الوعي وغابت شقيقتاها، وما تمكّنت من إيقاظهنّ. فحطمتُ شبَّابتي وهمتُ على وجهي أفتّش عن النغم الذي أفلت من بين شفتيّ، لأنّ شفتيّ اشتهتا في تلك اللحظة قبلة من شفتيها: لقد أفسدت شهوتي غايتي. فغايتي كانت أن أكتمل بها وراء حدود الزمان والمكان، وشهوتي كانت أن أتمتّع بها ضمن حدود المكان والزمان.»

«إذن أسطورة وادي العذارى حقيقة لا أسطورة؟»

«عدت فلقيتها أمس. وما أقرب أمس وما أبعده! فبثثتها أشواقي بأفواه أوتار كمنجتي، وظننتُني أفلحتُ حيث أخفقت من قبل. وعندما كدت أقتطف النصر صافيًا، كاملًا، وجميلًا فوق كلّ وصف استيقظتِ الشهوة التي حسبتني قهرتها من زمان، فأفلت منّي النغم، ومع النغم النصر، وقهرتني شهوتي، فهمت على وجهي من جديد أقاهر شهوتي. وإنّي لقاهرها في النهاية. كُن على ثقة من ذلك يا صاحبي. ولا تخف على بهاء. فحياتها ليست في خطر. أمّا حياة ليوناردو فالأخطار تحيق بها من كلّ صوب. والآن رجوتُك أن تتركني وشأني، فأمامي معارك قاسية بعد، ولا نصير لي فيها سوى شوقي اللافح وسوى شَهْلَبة ومَهْلَبة. ثمّ لا يخطرنّ لك ببال أن تعود إلى هذه المغارة. فلن تجدني فيها بعد اليوم. وأمّا ما رأيته وسمعته منّي فحذارِ أن تبوح به لأحد. إذ لن يفهمه أحد. وزمانه لم يأتِ بعد. فإلى اللقاء يا صاحبي. ولا تيأسنّ من سحر الحياة. »

مِن سِجن إلى سِجن

«صدّقيني يا ستّ وداد إنّ ما تطلبين إليّ القيام به لَفَوق ما أستطيع.»

«ألا تحبّ ليوناردو؟»

«أحبّه كثيرًا.»

«ألا تعتقده بريئًا من كلّ ما ينسبون إليه؟»

«إن أكُ سارقًا أو ساحرًا أو قاتلًا فَليوناردو سارق وساحر وقاتل.»

«ألا ترى أنّ العالم في أمسّ الحاجة إلى مواهبه الغزيرة، وفنّه الذي لا يُجارى، وأخلاقه البالغة من السموّ حدّ الكمال؟»

«إنّي أرى كلّ ذلك، وأكثر من ذلك يا ستّ وداد. ولكنّني لا أرى كيف لي أن أساعد سجينًا على الهرب من السجن، ثمّ أن آويه وأستره عن عيون السلطة وعيون الناس في بيتي. لا. لا. عفوك يا ستّ وداد. ذاك هو المستحيل بعينه.»

«ولكنّك لن تفعل أكثر من أن تركب وليوناردو سيارة وتأتي به إلى بيتك. وما بقي فعمله منوط بغيرك. والنجاح مضمون. وأمّا بيتك فما اخترته إلّا لأنّ الشكّ لا يمكن أن يتسرّب إليه في حال من الأحوال. وليوناردو لا يمكث فيه إلّا ريثما يتسنّى لنا تهريبه خارج الحدود وذلك في خلال يومَين أو ثلاثة لا أكثر. بالله عليك لا ترفض. ولو أنّك رأيته وعرفت ما يلاقيه من تعذيب وإهانة وأوجاع لا تطاق لَما رفضت.»

«كلّ ذلك يؤلمني أشدّ الألم يا ستّ وداد ولكنّ المستحيل مستحيل.»

تنهّدت الستّ وداد تنهّدة عميقة وسكتت على مضض، وراحت تفرك يديها آنًا وعينيها آونة، ثمّ تعضّ شفتها السفلى ثمّ تمسح جبينها الواسع بمنديلها وتردّ عنه الشعر المذرور عليه، وقد تورّدت وجنتاها كأنّ بها حمّى. وكانت قد أتتني في ساعة متأخّرة من النهار لتخبرني أنّ رجال التحرّي قد ألقوا القبض على ليوناردو منذ يومين وزجّوا به في السجن وراحوا يذيقونه من التعذيب أشكالًا،

وأنّهم عند إلقاء القبض عليه وضعوا في جيبه، من غير أن يدري، كمّية من النقود وجوازًا مزوّرًا ليثبتوا تهمة السرقة والتزوير عليه. وأنّ الذي أرشدهم إليه ما كان غير صديقي أبي منصور – ناطور منطقتنا – فنال بذلك مكافأة ماليّة كبيرة من أبي بهاء الذي لن يكتفي من ليوناردو بأقلّ من شرب دمه.

عندما أخذتْ محدّثتي منديلها بيدها ورفعته إلى جبينها لحظتُ ورقة صغيرة مطويّة وقعت منه. ولحظتُ محدّثتي ترفعها فتضعها في حضنها دونما اكتراث. وفي خلال الحديث وقعت الورقة أكثر من مرّة إلى الأرض. فكانت السيّدة وداد ترفعها في كلّ مرة وتعيدها إلى حضنها. إلى أن وقعت مرّة وبقيت على الأرض – فوجدتُها سانحة أقطع بها السكوت المضنك وأرفّه، ولو لِحين، عن أفكار جليستي المضطربة. فتقدّمتُ من الورقة ورفعتُها وناولتُها إيّاها قائلًا:

«لعلّ لهذه الورقة قيمة يا ستّ وداد.»

فانتفضت كَمَن كان في ذهول ثمّ ثاب إلى نفسه، وقالت بصوت فيه الكثير من الاعتذار والخجل:

«تبًا لي من بليدة بلهاء! لقد كدتُ أنسى الغاية من مجيئي إليك. هذه رسالة حمّلنيها ليوناردو وألحّ كلَّ الإلحاح في تسليمها لك يدًا بيد».

أخذتُ الورقة، وكانت مختومة، ففضضتها وإذا فيها:

«أرجوك أن تأتيني في الغد ومعك الكمنجة. ليوناردو.»

[redacted]



[redacted]

رفعت الستّ وداد يسراها إلى نحرها، ونفضت رأسها، وفتحت عينيها الواسعتين، وبعد تردّد سألتني:

«هل لي أن أعرف ما في الرسالة؟ إنه يحذّرك، ولا شكّ، مني. أحزرتُ أم لم أحزر؟».

«لا شيء من ذلك البتّة.»

«إذن هو يحذّرك من مساعدتي على تنفيذ الخطّة التي وضعتُها لإنقاذه. أليس كذلك؟»

«ما حزرتِ ولا هذه المرّة. وما رأيه في خطّتك؟»

«لم أطلعه عليها بعد لأنّني واثقة من رفضه.»

«إذن تريدين أن تنقذيه من غير علمه وأن تهربي به من السجن رغم أنفه.»

«نعم. نعم. رغم أنفه. فهو لن يحرّك ساكنًا واحدًا من تلقاء نفسه في سبيل خلاصه، لأنّه لا يعرف قيمة حياته لنفسه وللناس. أمّا نحن فنعرفها. وعلينا أن نعمل المستحيل لننجّيها من الهلاك. حرام. حرام.»

«سنعمل ما في وسعنا يا ستّ وداد من غير أن نخرج على القانون.»

«لا كان قانون يبطش بالأبرياء ويحمي المجرمين. والمجرم الأكبر في هذه القضية هو أخي سليم الذي لا يأنف من نسف حياة بريئة وشرب دم بريء.»

واستشاطت محدّثتي غضبًا، وراح الكلام يخرج من فمها كأنّه القذائف، وشفتاها ترتجفان وتزبدان، وعيناها تقدحان شرارًا، ويداها لا تكفّان عن الحركة، ووجهها يلتهب بما في قلبها من ثورة متأجّجة، فلا ترحم أخاها، ولا القانون، ولا رجال السلطة من أكبرهم حتّى أصغرهم. وخشيتُ أن تنتهي ثورتها بنوبة من الهستيريا. لكنّها، والزبد على شفتيها، والقذائف ما تزال تتسابق من فمها، نهضت من حيث كانت جالسة وضربت الأرض برجلها ضربة عصبيّة وهرولت إلى الباب ففتحته وخرجت من غير أن تودّعني. ولقد سمعتها تقول: «الويل للّذين عيونهم لا تسمع وآذانهم لا تبصر. أولئك هم الظالمون».

وكان ذلك آخر عهدي بالستّ وداد.

* * *

في صباح اليوم التالي أخذت الكمنجة وانطلقت إلى المدينة. وكان همّي الأوّل، قبل الذهاب إلى السجن، أن أقابل ذوي السلطان ممّن في يدهم الحلّ والربط فيما يتعلّق بقضية ليوناردو لعلّني أُقنعهم ببراءته وإخلاء سبيله. ولكن مساعيَّ كانت أعقم من النفخ في الرماد. فما كان أحد ليصدّق أنّ ليوناردو ليس بالساحر ولا بالسارق ولا بالمزوّر. وأنّه إنسان لا يمكن أن يُقاس بباقي الناس. فهو كتلة غريبة من الإحساس المرهف إلى حدّ يفوق المألوف والمعروف، وأنّه أقوى من أن

يكذب، وأغنى من أن يسرق، وأشدّ تقديسًا للحياة من أن يعبث بها في أيّ مخلوق. فقد كاد الجواب يكون واحدًا من كلّ جانب.

«إنّنا نُجِلّ آراءك ونحترم عواطفك الإنسانية. ولكنّ خبرتك الضئيلة في شؤون المجرمين تجعل من السهل على مجرم محنّك كليوناردو أن يتلاعب بعواطفك فيُظهر لك نفسه على عكس طويّته بالتمام. أمّا خبرتنا الواسعة فتدلنّا على أنّ هذا الرجل من أشدّ المجرمين، إن لم يكن أشدّهم، خطرًا على الهيئة الاجتماعية. ولدينا بيّنات لا تُدحض على أنه سارق ومزوّر ومشعوذ من طبقة فوق ما خبرناه في المشعوذين. وقد وجدنا المال المسروق والجواز المزوّر في جيبه، وشهد الناطور بأنّه رآه ومعه ثعلبان يرقصان على نغم شبّابته. فتأمل! إنّه ليؤسفنا جدًّا أن نردّ شفاعتك الغالية. ولكنّ العدالة لا ترحم.»

لم يكن بدّ من الاعتراف بالهزيمة تجاه تلك السدود المنيعة. إلّا أنّني رضيت من هزيمتي بقصاصة من الورق تسمح لي بالدخول على ليوناردو. وبمحادثته من غير أن يكون علينا رقيب، وبأن أحمل إليه الكمنجة من بعد أن فحصوها أدقّ الفحص، ومن بعد أن أفهموني أنّه لا يسمح له بالعزف عليها داخل السجن في حال من الأحوال.

دخلتُ على ليوناردو في زندانه الضيّق، المظلم، العاري من كلّ شيء سوى حصير رثّ مفروش على أرض من الإسمنت. فوجدتُ ليوناردو متربّعًا على الحصير، ويداه على ركبتيه، وعيناه على طرف أنفه. وإذ رآني لم يتحرّك من مكانه، بل رفع إليّ عينيه الذابلتين وقال متكلّفًا الابتسام:

«جئت؟».

فأجبته متكلّفًا ابتسامة كابتسامته:

«من مغارة وادي العذارى إلى هذا الزندان؟ أيّ بون شاسع بين الاثنين يا ليوناردو!».

«من سجن إلى سجن.»

«ولكنّ المغارة لم يكن فيها سياط تلهب جسدك النحيل، على حدّ ما أُخبرت أنّهم فاعلون بك هنا.»

«كان فيها سياط ولكن لا من الجلد والمرس. وتلك السياط كانت أشدّ تنكيلًا بي ولكنّ آثارها ما كانت تظهر في جلدي وعظمي.»

«هل عذّبوك كثيرًا يا ليوناردو؟»

«يكفيني أنّ أصابعي قد سلمت لي.»

«ظلموك، ظلموك أشدّ الظلم يا ليوناردو. وأنا واثق من براءتك. إلّا أنّ لساني أقصر من أن يفتح قلوبهم المغلقة، ويدي أضعف من أن ترفع أيديهم القاسية عنك.»

«ظلموني فعدلوا، ولكن من حيث لا يقصدون، ومن حيث لا تعلم يا صاحبي ولا يعلمون. إنّ ظلم الأرض من عدل السماء.»

«أمِنَ العدل أن يُجلَد مَن كان مثلك وأن يُهان؟»

«لو لم يكن في حياتي ما هو جدير بالجلد والإهانة لَما جُلدت، ولَما أُهنت، ولَما وجدتَني في هذا الزندان، ولَما كان لي هذا الشعور المالىء جوانب نفسي والذي كنتُ أشتاق تذوّقه كلّ حياتي، فما تذوّقته حتّى اليوم.»

«أبإستطاعتك أن تبوح لي بذاك الشعور لعلّني أفهم ما أغلق عليّ فهمه من أمرك؟»

«لقد تناثرت أوزاري عنّي تناثر الأوراق عن الشجرة في الخريف. فأنا أحسّني اليوم أخفّ من النسيم وأنقى من الثلج. لقد تنقّيت يا صاحبي من آخر خساسة في قلبي. ولأوّل مرّة في حياتي أقف عريانًا في حضرة الحقّ، لا يسترني عنه ستار فلا يحجبه عنّي حجاب. فالحقّ لا يتحجّب عنّا إلّا على قدر ما نتستر عنه. أنا اليوم صديق الموت والحياة بالسواء، وصديق الموت والحياة بالسواء، وصديق كلّ الناس، فإمّا حزنتَ فلا تحزن عليّ، بل على الرازحين تحت أوزار الحياة والموت والمتستّرين عن الحقّ بالباطل. أولئك ما أزفّت ساعتهم بعد. دعهم ينسجون لأعينهم الحجب ويصنعون لآذانهم الأوقار. لا بدّ من يومٍ تُهتك فيه الحجب وتُنزع الأوقار. لا بدّ لكلّ مشتاق إلى اللقاء من زندان.»

«ما قولك لو نحن دبّرنا لك وسيلة للخلاص ممّا أنْتَ فيه؟ أترضى؟»

«الخلاص قريب. ولا بدّ منه.»

«أنت تعني أنّ المحاكمة باتت قريبة، وأنّك منذ الآن راضٍ بالنتيجة مهما تكن. وأمّا أنا فأعني غير ذلك.»

«وماذا الذي تعنيه؟»

«أعني الهرب. أتهربُ لو جاء من يكفل لك النجاح؟»

ابتسم ليوناردو ابتسامة صفراويّة هازئة وقال هازًّا رأسه على مهل من جانب إلى جانب:

«الهرب؟! لقد فتكت بِما كنت هاربًا منه كلّ حياتي. فممّ أهرب بعد اليوم؟».

«قد يحكمون عليك بالسجن المؤبّد وبالأشغال الشاقّة. وقد يحكمون عليك بالإعدام. من يدري؟ أفَلَيس الأفضل أن تنجو بحياتك ما دام إلى النجاة سبيل، وما دام لك من يضمن النجاة؟»

«ويل للهاربين من شهواتهم لأنّهم من سجن إلى سجن يهربون، وويل للهاربين من سجونهم فهم يهربون من منقذيهم من حيث لا يعلمون. أعطنيها».

كنت عازمًا أن أطلع ليوناردو على ما كان بيني وبين الستّ وداد بشأن تهريبه من السجن. ولكنّني عدلت عن ذلك من بعد أن سمعتُ منه ما سمعت.

ومدّ ليوناردو يده إليّ ليتناول الكمنجة. فناولته إيّاها وأفهمته أنّ اللعب عليها غير مباح. ولكنّه، والكمنجة في يده، أصبح في ذهول عنّي وعن كلّ ما حواليه. فما أظنّه سمعني أو اهتمّ أن يسمعني. بل راح يدغدغ بيت الكمنجة بيديه كما تدغدغ الأمّ طفلها أو العاشق معشوقه. ثمّ فتح البيت وأخرج الكمنجة برفق، وتأمّلها طويلًا، ثمّ أدناها من فمه وقبّلها ثلاثًا ونقر كلّ واحد من أوتارها الأربعة نقرة لطيفة، خفيفة، وعيناه مطبقتان، وعلى وجهه تتماوج خيالات شفّافة مجلببة بنور هادىء مطمئن. وأخيرًا وضع الكمنجة في بيتها، وأحكم إقفاله، وردّها إليّ قائلًا:

«خذها معك ولاقني بها الليلة عند بهاء».

«عند بهاء؟ أنسيت أنّك سجين؟»

«لا بدّ من ذلك. وعليك أن تدبّر الأمر.»

«ولكنّ أباها لن يقوى على ضبط أعصابه حالما تقع عينه عليك. وهو لا شهوة عنده اليوم أعزّ من شرب دمك.»

«ليته يفعل ذلك. فقد يصحو من سكرته. إلّا أنّ وجوده يفسد عليّ عملي. فلا يجب أن يراني ولا يجب أن أراه قبل أن أرى بهاء. بل يجب ألّا يكون معي في مقابلة بهاء أحد غيرك.»

«وما قصدك من زيارة بهاء؟ ألِتَنكأ جروح والدها وتقضي على ما تبقّى من أنحابها؟»

«إن لم أقابل بهاء فقد هدرت حياتي هدرًا وتحمّلت ما تحمّلت من العذاب لغير ما غاية أو معنى. لا بدّ من اللقاء يا صاحبي، لا بدّ من اللقاء. ومن حسن حظّك أن تقوم بدور الوسيط. إذهب الآن بسلام وعد إليّ في المساء لنذهب معًا لعند بهاء. ولا تنسَ ما أوصيتك به من زمان بشأن الكمنجة.»

«أما قمتُ بوصيّتك خير القيام فحفظت الكمنجة من كلّ سوء وكتمتُ أمرها عن الناس. فماذا تريد منّي بعد؟»

«لقد أوصيتك أن تحرقها وتدفن رمادها بين جذور صنوبرة منفردة مسنّة. فهل نسيت؟»

«ذاك إذا لم تعُد بعد عامين.»

«لقد عشت عامين في شهرين.»

تظاهرتُ بأنّني فهمتُ قصده، وإن كنتُ لم أفهمه، وأسرعتُ في توديعه إذ بدأت أشعر بشبه دوار في رأسي قد يكون ناجمًا عن الهواء الفاسد في الزندان، أو عن توجّعي لحالة ليوناردو، أو عن اضطراب في أفكاري كلّما حاولتُ أن أردّ حكايته المعقّدة إلى شيء من العقل والمنطق.

ما كان بالسهل عليّ أن أفوز من رجال السلطة بالإذن لليوناردو بمغادرة السجن ولو لساعتين. فقد كفلت لهم عودته بكلّ ما أملك من الصدق والشرف وسلامة النيّة وقوّة الإقناع. إلّا أنّ الصعوبة

كلّ الصعوبة كانت في إقناع صديقي سليم الكرّام بالسماح لليوناردو بأن يدخل بيته، وبالأخصّ غرفة بهاء.

«أيقتلها ثمّ يجيء ليمشي في جنازتها؟ وما قصده من زيارتها الآن والحياة فيها توشك أن تزهق؟ وكيف أسمح لوغد مثله أن تقع عينه الأثيمة على وجه بهاء الطاهر؟ لا. لا. لا يا صاحبي. إنّ خاطرك لعزيز لديّ، ولكن ليس إلى حدّ أن أمتهن من أجله عرضي وكرامتي وأدوس شرفي برجلي، ومن ثمّ فكيف لي أن أملك أعصابي فأعرف أنّه في متناول يدي ولا أذبحه وأشرب دمه؟ لا. لا. عذرك يا صديقي. فما أظنّني أقوى على تجربة كهذه. لا تجرّبني. لا تجرّبني».

إلّا أنّني، بعد مداورات طويلة، تمكّنت من التغلّب، إلى حدّ، على ثورة أعصابه وأفكاره ومشاعره. فأخذت منه وعدًا بأن لا يتصدّى لليوناردو بسوء. وبأن يختفي عن بصره وبصري، ما دمنا في البيت. إلّا إذا دعوته بنفسي.

ورحت أرتقب السماء بفارغ الصبر لعلّني أفهم قصد ليوناردو من زيارته لبهاء.

لِقَاء

تغيّرت بهاء، حتّى أنّ من رآها ليلة خطبتها لا يكاد يعرفها اليوم، فالمحجران الواسعان يبدوان كأنّهما جدثان ترقد فيهما تانك العينان الحالمتان وقد لُفّتا بكفنين ناعمين، شفّافين من الجلد الزعفرانيّ، هما جفناهما الأعليان. والأهداب الطويلة، السود، المقوّسة إلى فوق قد التصقت بعضها ببعض واتّكأت على حفاف الوجنتين. والوجنتان الذابلتان والخدّان الهابطان كأنّهما من الجصّ خالطه القليل من الزيت. والشفتان الرقيقتان مختومتان بخاتم سرّ رهيب، فلا تختلجان بحركة، ولا تموّه صفرتهما إلّا بقيّة هزيلة من دم مهزوم. والأنف بمنخريه الدقيقين يتطلّع إلى السقف ويعالج الهواء ليأخذ منه نفَسًا بطيئًا ويردّ إليه نفَسًا أبطأ. واليَدان مسبلتان فوق اللحاف الحريريّ ولكنّهما لا قوّة فيهما ولا حياة. فالأصابع الهيف عظام تكاد تبصرها العين من خلال الجلد المغلّفة به. والأظافر، ولم تُقلّم من زمان، لا لون فيها ولا لمعان.

هيكل بشريّ سويّ. ولكنّه لا في الحياة ولا في الموت، بل كأنّه معلّق بين بين. وليس من يدري نصيبه من الاثنين. أفي عينيه نور، وأين ذلك النور؟ أفي رأسه خيالات وأحلام، وما هي تلك الخيالات والأحلام؟ أفي قلبه آمال وشهوات، وماذا هو فاعل بآماله وشهواته؟ وما الفرق بين الموت والحياة لِمن لا قدرة فيه على الاستمتاع بمقوّمات الحياة؟ أيّ خير في نفَس لا يرافقه فكر وإحساس وحركة؟ بل أيّ خير في فكر لا قدرة له على التجسّد، وفي إحساس لا سبيل له إلى الظهور، وفي حركة يبتلعها السكون؟ أم أنّ في مطاوي الزمان حالات تفوق التصوّر فلا هي بالحياة كما نعرفها، ولا هي بالموت كما ألفْناه، بل هي كينونة لا تفتقر إلى بيان ولا تلزمها حركة؟

كان همّي، بعد أن دخلنا غرفة بهاء المنارة بنور خافت، ناعم، أن أراقب وجه ليوناردو لعلّني ألمح عليه خيالات الانفعالات القويّة التي كنتُ أتوقّع أن تثيرها فيه تلك المقابلة. ولكنّ ليوناردو خيّب ظنّي فقد كان وجهه كأنّه وجه أبي الهول.

دنا ليوناردو من السرير ووقف عند رأسه وغرس بصره في وجه بهاء، فلا عيناه تتحرّكان، ولا أجفانه ترفّ، ولا عضل من عضلاته يتمدّد أو يتقلّص. وبقي كذلك برهة خلتها دهرًا. ومن بعدها التفت إليّ وقال بصوت منخفض:

«ساعدني».

قلتُ وقد أدهشني طلبه:

«بماذا أساعدك؟».

فأجاب بالهمس ومن غير أن يأبه لدهشتي:

«ساعدني على تنقية الجو في هذه الغرفة».

قلتُ والدهشة ما برحت بادية في صوتي:

«إنّ الهواء في الغرفة نقيّ. وها هي ذي نافذة مفتوحة. أتريدني أن أفتح أخرى؟».

«بل أغلق النافذة المفتوحة وساعدني على تنقية الجوّ ممّا فيه من أفكار سود، وآمال محطّمة، وعبرات، وزفرات، وحقد، وبغض، ورياء وما إليها. أما تشعر بثقلها؟»

قال ذلك وجثا على ركبتيه، وأغمض عينيه، وضمّ ذراعيه على صدره وانقطع عن الكلام والحركة. أمّا أنا فبقيت واقفًا أنظر إليه تارة وإلى بهاء أخرى، وأفكاري تحاول عبثًا أن تنفذ إلى قلبه أو قلبها لعلني أدرك الصلة التي تربط بينهما من جانب، وبينهما وبيني من الآخر. فما شأني معهما، وما شأنهما معي؟ بل ما شأن ليوناردو من بهاء؟ وشأن بهاء من ليوناردو؟ ولماذا هذه الدورات الغريبة في العلائق التي تربطهما؟ أصحيح ما لمّح إليه ليوناردو من أنّهما قد تعارفا في سالف الأزمان يوم كانت ابنة أمير عظيم وكان هو راعيًا لأغنام أبيها؟ إذن أنا قد شربت من دموعها في كلّ مرة شربتُ فيها من عين الدموع. وإذن بيني وبينها صلة، وكذلك بيني وبين ليوناردو. فلا عجب أن تختارني الأقدار همزة وصل بينهما. وإذا صحّ ذلك فما أجهل الناس يقيسون العمر بفترة قصيرة من الزمان تنطوي ما بين المهد واللحد، وأعمارهم تمتدّ ما امتدّ الزمان.

إلّا أنّ العقل يأبَى التسليم بشيء من ذلك. فالولادة في شرعه هي البداية، والموت هو النهاية. وكلّ علاقة بين إنسان وإنسان لا يمكن أن تسبق البداية ولا أن تتجاوز النهاية. أمّا أن تكون قبل البداية بدايات، وبعد النهاية نهايات، وأمّا أن يكون الزمان اتّصالًا لا انقطاع فيه ولا انفصال، وأن تكون الحياة كالزمان، فأمر لا قِبَل للعقل بهضمه.

ولكن، أما قال لي ليوناردو مرّة في الطبيعة: «يا ليت حدودها ما كانت غير حدود المألوف والمعقول عند الناس. إذن لَما كان أسهلها مطية وأسلسلها قيادًا للإنسان؟» ألعلّه على صواب والناس في ضلال؟

[redacted]



[redacted]

وبغتة نهض ليوناردو عن الأرض، ونفض رأسه، وبكلتا يديه ردّ إلى الوراء الشعر الطويل الذي كان قد هبط إلى جبينه، وأشار إليّ أن أناوله الكمنجة التي كنت أتأبّطها. فأخرجها من بيتها بسرعة، ووضع البيت جانبًا، ثمّ راح يوقّع الأوتار بخفّة ولباقة متناهيتين. وعندما استوت له راح يعزف.

لقد خُيّل إليّ بادىء ذي بدء أنّ الكمنجة طفل في أوّل عهده بالمقاطع والكلام. فهي تلثغ، وتردّد، وتتعثّر، ولكنّها لا تتردّد ولا تأبه للعثرات، بل تضحك ضحك الأطفال مزهوّة باكتشافها لذّة النطق والبيان، وإن يكن نطق طفل وبيان طفل. وأحيانًا كانت تنطلق انطلاق فرخ الطير من عشّه، وقد اكتسى بالريش واشتدّ جناحاه، فألقى بنفسه في خضمّ اللانهاية، ولأوّل مرّة تذوّق لذّة القوّة، ونشوة المدى، وسحر التسلّط على الهواء. ذاك وقلبه الصغير في خفقان من هول التجربة ومن خوف الفشل، ثمّ من غبطة الفوز ولجاجة الشوق إلى فوز أكبر وأبعد.

ما كان باستطاعتي أن أرافق الكمنجة في كلّ جولاتها، وأن أفهم كلّ عباراتها. فقد فاتني منها الكثير. إلّا أنّني أخذت أحسّ اهتزازاتها في بدني حتّى كأنّ كل قطرة من دمي كان يصلها سلك سرّي بأصابع ليوناردو وأوتار كمنجته. مثلما أخذت أحسّ ما يماثل تلك الاهتزازات في الجوّ من حواليَّ. وما عتّمت أن شعرت كما لو كان جسدي بكامله آلة موقّعة أتمّ التوقيع. فأحيانًا أحسّني بصرًا حادًّا لا غير. وأحيانًا سمعًا مرهفًا لا غير. وأحيانًا أبصر وأسمع وألمس وأشمّ وأذوق في آنٍ كما لو كانت حواسي الخمس قد انصهرت في حاسة واحدة شاملة كاملة.

حياة تمطّت بين فجر الزمان وغسقه راحت تتواثب عليّ مشاهدها من جوف تلك الآلة الجوفاء كلّما أمعن القوس وأمعنت أصابع ليوناردو في أوتارها ضمًّا ولثمًا. فمن غفوة بيضاء إلى يقظة سوداء، ومن بهجة راقصة إلى حرقة صاهرة، ومن طمأنينة تملأ رحاب النفس إلى قلق يقرض نياط القلب. إيمان وشكّ، إعياء وراحة، نصر وهزيمة، زوابع وعواصف وصواعق وزلازل تتخلّلها فسحات من السكون الحالم، والتأمّل الهانىء، والأمل الواثق، والاستقرار المطمئن. وهذه كلّها يهيمن عليها حنين لاهب لا يخبو له أوار. حتّى لأعجب للكمنجة كيف لا تلتهب في يدي ليوناردو، وأعجب لليوناردو كيف عاش من السنين وذاك الحنين لم يلتهمه بلحمه ودمه وعظمه.

رحت أخشى أن أُصاب من كمنجة ليوناردو بمثل ما أصيبت به بهاء. فحاولت غير مرة أن أفلت من سحر اهتزازاتها ولكن بغير جدوى. وحانت مني التفاتة إلى وجه ليوناردو وإذا به غير وجه ليوناردو. لقد انتشرت عليه سحابة من النور غيّرت عليّ ملامحه. ففي العينين بريق عجيب يخبو ثمّ يتلألأ، وعلى أطراف الشفتين المفتوحتين نصف فتحة بسمة أخّاذة تنهلّ منها شآبيب من الغبطة الوادعة الصافية. وعلى الجبين ندى نحيف شفاف يلمع كأنّه الرذاذ في عين الشمس.

نقلت نظري إلى وجه بهاء وإذا به تطفو عليه سحابة كالتي على وجه ليوناردو، وإذا بشفتَي بهاء قد انفتحتا كذلك عن بسمة أخّاذة، وبجبينها قد تندّى نظير جبين ليوناردو. وإذا بحاجبيها يرتفعان قليلًا ثمّ ينخفضان، وبأجفانها ترتعش رعشات خفيفة متوالية. وكأنّني لمحت اللحاف على صدرها يختلج صعودًا ونزولًا.

أهُما عيناي تخدعاني، أم أنّ ما أراه هو حقيقة لا رؤيا؟ أم هي كمنجة ليوناردو قد أطاحت حواسي فما أدري أفي يقظة أنا أم في منام؟

فركتُ عينيّ بيديّ فركًا قويًّا، وقرصت وجنتيَّ ثلاث قرصات فتألّمت. إذن لست في منام. وإذا بهاء تعود الحركة إلى مفاصلها. أجل. أجل. ها هي أهدابها الطويلة المقوّسة تتحرّك وتنفتح أجفانها قليلًا ثمّ تنبسط. وها هو اللِّحاف فوق صدرها يزداد اختلاجًا بين صعود وهبوط. بل ها أنا أَسمع نفسًا ضئيلًا وطويلًا يخرج من صدرها، وأبصر حمرة شفّافة تعود إلى وجنتيها. ما في ذلك شكّ. بهاء تسمع وتعي وتتحرّك. لا. ما في ذلك شكّ على الإطلاق.

بلغت الكمنجة نفثة من نفثاتها خِلتُني أسمع فيها هدهدة النسائم في وادي العذارى، وأُبصر زرقة الماء الزلال في جرن عين الدموع، وأكرع فيه فأحسّ عذوبته تمشي في عروقي، ثمّ أتسلّق الصخر إلى المغارة حيث شَهْلَبَة ومَهْلَبَة يرقصان على أنغام شبَّابة ليوناردو، ثمّ ينامان، ثم يفيقان. فكأنّ الكمنجة انقلبت شبَّابة. وكأنّ الغرفة التي نحن فيها تحوّلت إلى المغارة في وادي العذارى. أفَيَنتَهي المشهد أمامي بمثل ما انتهى ذلك المشهد في المغارة، وتستفيق بهاء مثلما استفاق شَهْلَبة ومَهْلَبة؟ ولكنّها تستفيق. بل هي قد استفاقت. أما أراها تتململ في فراشها، ثمّ تنقلب من ظهرها إلى جنبها الأيمن، ثمّ من الأيمن إلى الأيسر، ثمّ تردّ اللحاف عنها بكلتا يديها كأنّها تستعدّ للنهوض؟ بلى. بلى. ومن الحقّ أن يشهد والدها ما أنا شاهد.

ومن غير أن أستأذن ليوناردو الذي كان في ذهول عنّي وعن كلّ ما في الأرض، ما عدا كمنجته وبهاء، خرجت من الغرفة بخفّة النسيم ورحت أفتّش في البيت عن صديقي سليم غير عالم بأيّة كلمات وأيّة إشارات أزفّ إليه البشرى. وإذ عثرت عليه قابعًا في زاوية من زوايا ردهة الاستقبال الفسيحة، ورأسه بين يديه، ودموعه تترقرق على خدّيه، لم أجد ما أقوله أو أفعله خيرًا من أن آخذه بيده وأحاول أن أجرّه ورائي. لكنّه ما أسلس الانقياد لي. بل سحب يده من يدي بغضب وقال:

«إلى أين؟».

قلت: «إلى غرفة بهاء.»

فأجاب مصرّفًا بأسنانه: «قلتُ لك لا تجرّبني يا صاحبي. فأنا أضعف من أن أقوى على التجربة. أنهِ ما أنت فيه وانصرف به عنّي. وإلّا فأنا قاتله لا محالة».

«ولكنّه قد ردّ إليك بهاء.»

«ردّ إليّ بهاء؟»

«نعم، نعم. لقد أفاقت بهاء.»

ما صدَّق المسكين كلامي. ولكنّه انقطع عن معاندتي ومشى معي. وما إن بلغنا الباب حتّى أبصرنا بهاء جالسة في فراشها، ويداها على صدرها، وعيناها الواسعتان شاخصتان إلى ليوناردو الذي ما انفكّ يعزف ويعزف.

شعرت بصديقي يهتزّ جسمه الجبّار وينتفض كأنّه في نوبة من البُرَداء، ثمّ رأيتُ عينيه تنفتحان دهشة وتتنقلان بسرعة البرق من بهاء إلى ليوناردو ومن ليوناردو إلى بهاء، ورأيت شفتيه ترتجفان وتحاولان الكلام فما تستطيعان. وشعرت به يتحفّز للوثوب إلى حيث ابنته. فضغطت على يده ضغطًا قويًّا وأشرتُ إليه بالسكوت والجمود ريثما ينتهي ليوناردو من عزفه.

وكانت الكمنجة تترنّح كأنّها النشوان، ولكن بسلافة ما عرفتها الأرض. فقد راحت أنغامها الصافية إلى أقصى حدود الصفاء تنتثر أشعّة وهّاجة مؤنسة. ثمّ تتعالى وتتعالى فلا تقف عند حدّ، ثمّ تتلاشى في سكينة كلّها ألحان، وكلّها أسرار، وكلّها سحر.

ما إن سكتت الكمنجة حتّى بسطت بهاء ذراعيها نحو ليوناردو وهتفت بصوت يستحيل وصف ما فيه من اللهفة والحنان والظفر:

«ليو – نار – دو!».

فأجابها ليوناردو بصوت فيه مثل ما في صوتها من اللهفة والحنان والظفر:

«ها أنذا يا بهاء!».

وللحال وقعت الكمنجة من يده، وعلى الأثر وقع هو كذلك متماهلًا إلى الأرض حيث انطوى على ذاته كأنّه الثوب. وما هي غير لحظة حتّى رأينا بهاء تنطوي على نفسها وتهبط إلى الوسادات التي على سريرها.

عندئذٍ تقدّم الوالد، وقد فارقته الرجفة، ودنا من سرير ابنته وناداها باسمها فلم تُجب. وجسّ معصمها فإذا لا نبض به ولا حياة. ثمّ تناول يد ليوناردو فإذا بها كذلك بغير حياة. ولكم أدهشني وهزّني أن أراه يضع يد بهاء في يد ليوناردو ثمّ يكبّ على الاثنين فيقبّلهما، ثمّ أن أسمعه يتمتم: «ولدي بهاء. ولدي ليوناردو». ثمّ أن يلتفت إليّ ويقول من غير أن أسمع في صوته أخفّ أثر لأخفّ غصّة:

«تلاقيا».

* * *

على الربوة الخضراء، في ظلّ صنوبرة منفردة مسنّة، حجرة فخمة من المرمر النادر وقد حُفرت في أعلاها بأحرف بارزة كبيرة كلمة «لقاء» ومن تحتها بأحرف أصغر:

«ليوناردو – بهاء».

وفي التراب، بين جذور الصنوبرة، قارورة من المرمر عينه تحوي رماد الكمنجة التي ما باحت بسحرها لغير ليوناردو.